عُمران omran
المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/ICZX6168

منصور النصاصرة | Mansour Nasasra* وبروس ي. ستانلي | Bruce E. Stanley**
ترجمة مجد أبو عامر | Majd Abuamer*** ويارا نصّار | Yara Nassar****

تشكّل العوالم الحضرية: الحاضرة الدائمة الصيرورة في بئر السبع وعبر فضائها*****

Assembling Urban Worlds: Always–becoming Urban in and through Bir al–Saba’

ملخص: تملكُ مدينة بئر السبع، الواقعة ضمن عالم حضري ممتد عبر جنوب فلسطين، قصةً ترويها عن تحولات مكانية – زمانية دراماتيكية، وحضور وغياب، واحتواء وصمود. تشكّل هذا التاريخ الحضري المتصل على نحوٍ عميق من خلال علاقات صنعت العالم بين أولئك الذين سكنوا واستقروا داخل الجغرافيا المكانية المادية والمتخيَّلة للنقب الدائم الصيرورة. تقدّم المادة البحثية، المستقاة من مصادر أرشيفية متنوعة ومعطيات المقابلات، إضاءةً على أصوات السبعاويين وأفعالهم ومخيالاتهم، في تفاعلهم مع التجميعات المتغيرة خلال الفترة 1840–1936، ما جعل بئر السبع مكانًا كوزموبوليتانيًا كثيفًا متعدد النطاقات حافلاً بالمعاني والفرص.

كلمات مفتاحية: التاريخ الحضري، الجغرافيا، التمدين، بئر السبع، فلسطين.

Abstract: The city of Bir al–Saba’, situated within an urban world stretched across southern Palestine, has a story to tell; one of dramatic spatiotemporal transformations, presence and absence, capture and resilience. Such connected urban history is profoundly shaped through the world–making relations of those who lived and dwelt within the always–becoming material and ideational spatial geography of the Naqab. Research gathered from diverse archival sources and interview data offers insight into the voices, actions and imaginaries of the Saba’awi people as they worked the shifting assemblages of this landscape between 1840 and 1936, making Bir al–Saba’ a thick multiscalar cosmopolitan place of meaning and opportunity.

Keywords: Urban History, Geography, Urbanism, Bir al–Saba’, Palestine.

* باحث زائر في جامعة ألستر، إيرلندا الشمالية.
Visting Scholar at Ulster University, Northern Ireland. Email: m.nasasra261@gmail.com
** أستاذ فخري في جامعة ريتشموند الأميركية بلندن.
Emeritus Professor at Richmond American University London. Email: bruce.stanley@richmond.ac.uk
*** باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
Researcher at the Arab Center for Research and Policy Studies. Email: majd.abuamer@dohainstitute.edu.qa
**** باحثة في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
Researcher at the Arab Center for Research and Policy Studies. Email: yara.nassar@dohainstitute.edu.qa

***** هذا النص ترجمة عن الإنكليزية للدراسة المنشورة في: *Urban History*, vol. 51, no. 2 (2024), pp. 391–413.

يستحيلُ سرد قصة أيّ مدينة على حدة من دون فهم ارتباطاتها بأماكن أخرى، فالمدن في جوهرها فضاءات مفتوحة؛ أماكن للتلاقي، ونقطة ارتكاز لجغرافيا العلاقات الاجتماعية[1].

مقدمة

تملكُ بعض الأمكنة الحضرية، على امتداد الزمان، حكايةً مُعقّدة ترويها عن حضورٍ عابر وغيابٍ طيفي، وعن لحظات انتقال إلى الوجود المادي والذاكرة ومنهما، قبل أن تتجسّد مجددًا في عوالمها الحضرية ومن خلالها. فأولئك الذين يسكنون هذه الأراضي ذات الانقطاعات والاستمراريات الزمانية والمكانية هم صانعو العوالم، ينسجون على الدوام أساليب حياة حضرية يومية رغم تعاقب الإمبراطوريات والولاة وتبدّلهم.

تُعدّ مدينة بئر السبع الفلسطينية مثالاً على هذه الأمكنة المتجذرة، فهي مدينة "عادية" على غرار كثير من المدن الأخرى في العالم التي نادرًا ما رُويت حكاية تشكّلها وإعادة تشكّلها[2]. تُركّز معظم الأدبيات عن التَمَدْيُن[3] الفلسطيني على مدنٍ شهيرة بعينها بوصفها معالم في المخيالات والصراعات العالمية، تاركةً أمكنة "عادية" مثل بئر السبع "خارج الخريطة" من دون تناول كافٍ[4]. بل تبدو معظم المدن الفلسطينية في الفترة السابقة لعام 1948 "غائبةً" عن الدراسات الحضرية العالمية، مثلما فُقدت من الذاكرة مسارات التَمَدْيُن الفلسطيني وسيروراته[5].

يواجه الباحثون الساعون إلى موضعة مدن فلسطينية مثل بئر السبع ضمن التاريخ الحضري العالمي عددًا من الصعوبات التحليلية[6]، تتمثل إحداها في أن معظم السرديات المتعلقة بمدن فلسطينية بعينها

(1) John Allen, Doreen Massey & Steve Pile, "Introduction," in: John Allen, Doreen Massey & Steve Pile (eds.), *City Worlds* (London: Routledge, 1999), p. 2.

(2) Jennifer Robinson, *Ordinary Cities: Between Modernity and Development* (Abingdon: Routledge, 2006).

(3) يُقصد بالتَمَدْيُن Urbanism نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالمدن. برز المفهوم موضوعًا مركزيًا في علم الاجتماع منذ القرن التاسع عشر مع التحوّل من المجتمعات المحلية الصغيرة إلى المدن الكبرى المتمايزة، وما رافق ذلك من تغيّر في طبيعة الروابط الاجتماعية. تناولت الأعمال الكلاسيكية هذا التحول من زوايا مختلفة، مركّزةً على آثار الحياة الحضرية في التنظيم الاجتماعي وأنماط التفاعل. وفي مطلع القرن العشرين، تطوّرت الدراسات الحضرية عبر بحوث إمبريقية ركّزت على البنية الوظيفية للمدينة وتقسيماتها الداخلية. ثم شهدت سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته موجة جديدة أعادت ربط التَمَدْيُن بقضايا الاقتصاد السياسي، والتنمية، وسلطة الدولة، والحركات الاجتماعية، مؤكدةً أن التَمَدْيُن ليس شكلًا عمرانيًا، بل منظومة اجتماعية وتاريخية ديناميكية. (المترجمان)

(4) Mansour Nasasra, "Beersheba and the Dynamics of a Palestinian City: Bedouin Networks with Gaza, Jerusalem, and Istanbul," in: Haim Yacobi & Mansour Nasasra (eds.), *Routledge Handbook on Middle East Cities* (Abingdon: Routledge, 2019), pp. 121–135.

(5) Manar Hasan, "Palestine's Absent Cities: Gender, Memoricide and the Silencing of Urban Palestinian Memory," *Journal of Holy Land and Palestine Studies*, vol. 18, no. 1 (2019), pp. 1–20.

(6) Emma Hart & Mariana Dantas, "Digging down into the Global Urban Past," *Urban History*, vol. 48, no. 3 (2021), pp. 424–434.

تفشل في تأطير هذه المدن ضمن نُظم المدن الإقليمية الأوسع التي تنتمي إليها، بل تروي قصتها من خلال منظور "المدينية المنهجية" Methodological Cityism[7]. وهذا الخيار، كما تشير دورين ماسي، يُسيء تمثيل الطبيعة العلائقية الأساسية للحاضرة وسيرورات تحوّلها. ولم تُعدّ العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية العابرة للمحليات، في الغالب، الأسس الأنطولوجية للحياة الحضرية الفلسطينية، على الرغم من شروع دراسات حديثة عن المدن الفلسطينية في القيام بذلك[8]. وبخلاف الإشارات المتفرقة إلى التجارة الزراعية مع غزة، لم تكن المعطيات التاريخية العلائقية متاحةً على نحو كافٍ لإعادة وصل بئر السبع[9] بجنوب فلسطين؛ الأمر الذي أبقاها "ضعيفة التشبيك"، ومتصوَّرة أساسًا بوصفها مجالاً تُرابيًا مقيدًا ومشكوكًا في فاعليته[10].

تظهرُ إشكالياتٌ متصلة أخرى عند محاولة إعادة موضعة بئر السبع، فكثيرًا ما تسردُ السير الخاصة للمدن تحوّلاتها من خلال منظور بنيوي كلي (ماكرو)، يُمجّد "سياق السياقات" ويُعلي من القوة التفسيرية للاقتصاد الجيوسياسي، في حين يُغيّب المدن عن العلاقات الاجتماعية اليومية التي تصنع العالم، وينتقص من دور ساكنيها في التحوّل الحضري[11]. إضافةً إلى ذلك، كثيرًا ما تُشكّل الثنائية الاستعمارية حضري/ ريفي Rural/ Urban سرديات العوالم الحضرية، دافعةً أولئك الذين لا يُعدون "داخل" المدينة "خارج" التاريخ الحضري؛ لأنهم لا يقدّمون نموذجًا غربيًا لـ "التَمَدْيُن بوصفه أسلوب حياة"[12]. وفي هذه الحالة، يُستبعَد من التاريخ الحضري من عاشوا خارج أسوار المدينة في جنوب فلسطين، ويُختزلون، على نحوٍ استشراقي كولونيالي، في صورة "بدو رحّل"، يُفترض أنهم يفتقرون إلى "التَمَدْيُن"، وتُشطب أدوارهم بموجب سردية نمطية عن الفوضى[13]، وتُجرّد أهميتهم بحيث يغدو التَمَدْيُن أمرًا ينبغي فرضه عليهم[14]. وعندما تقترن هذه الرؤية بولع حداثي بالموروفولوجيا الحضرية

(7) Peter J. Taylor, *Extraordinary Cities* (Cheltenham: Edward Elgar Publishing Ltd, 2013).

(8) Marion Lecoquierre, "Hebron: Challenging the Urbicide," in: Yacobi & Nasasra (eds.), pp. 319–333; Rana Barakat, "The Jerusalem Fellah: Popular Politics in Mandate–era Palestine," in: Rashid Khalidi & Salim Tamari (eds.), *The Other Jerusalem: Rethinking the History of the Sacred City* (New York: Institute for Palestine Studies, 2020), pp. 213–228.

(9) نعتمدُ "بئر السبع" تسميةً للمكان بدلًا من التسمية العبرية المعاصرة "بيرشيفا" Beersheva؛ لأنّ الأولى هي التسمية الأصلانية التي استخدمها من سكنوا هذا المشهد المكاني لأكثر من ألف عام، وهي كذلك التسمية الواردة في مقابلاتنا وفي الأرشيفات العثمانية.

(10) Bruce Stanley, "Middle East City Networks and the 'New Urbanism'," *Cities*, vol. 22, no. 3 (2005), pp. 189–199.

(11) Neil Brenner, David J. Madden & David Wachsmuth, "Assemblage Urbanism and the Challenges of Critical Urban Theory," *City*, vol. 15, no. 2 (2011), pp. 225–240.

(12) Louis Wirth, "Urbanism as a Way of Life," *American Journal of Sociology*, vol. 44, no. 1 (1938), pp. 1–24.

(13) Ariel Meraiot, Avinoam Meir & Steve Rose, "Scale, Landscape and Indigenous Bedouin Land Use: Spatial Order and Agricultural Sedentarisation in the Negev Highland," *Nomadic Peoples*, vol. 25, no. 1 (2021), pp. 4–35.

(14) صرّح وزير الزراعة الإسرائيلي (آنذاك) موشيه ديان لصحيفة **هآرتس** عام 1963: "يجب أن نحوّل البدو إلى بروليتاريا حضرية في الصناعة والخدمات والبناء والزراعة […] سيذهب الأطفال إلى المدارس بشعرٍ مصفف بعناية. ستكون ثورةً، لكنّها ستُحلّ خلال جيلين […] ستختفي ظاهرة البدو". ينظر: *Haaretz*, 31/7/1963.

وتخطيط المدن، تميلُ الدراسات عن أمكنة مثل بئر السبع إلى أن تكون لاتاريخية[15] وذات نزعة دولانية؛ إذ تختار، في هذه الحالة، أن تبدأ من عام 1901 أو ما بعد عام 1948، فتُعزى نشأتها وحيويتها إلى قوى إمبريالية أو صهيونية أو رأسمالية[16].

قادنا بحثنا الميداني في هذه الدراسة إلى اتجاه مغاير يُفكك السردية الاستعمارية والاستشراقية عن تشكل بئر السبع وتحولاتها الزمانية والمكانية. فمن خلال التركيز على الأنشطة والممارسات التي يضطلع بها "الساكنون والمستقرون"[17]، يبدأ نشاط السبعاويين ومخيالاتهم أثناء تركيب/ إعادة تركيب التجميعات[18] الحضرية الإقليمية في إطار نسج حضورهم مجددًا داخل حكاية بئر السبع[19]، حيث تُسهم علاقاتهم العادية في هذا المكان ومن خلاله، وروابطهم ومخيالاتهم، في تغيير "تضاريس الحاضرة"[20]. وتُعدّ إعادة تفسير تجذّر بئر السبع في التاريخ الحضري الفلسطيني اتجاهًا حديثًا في الأدبيات[21]، ونسعى في هذه الدراسة إلى المساهمة فيه. وتستجيب الدراسة للدعوة إلى إجراء دراسات "من أمكنة أخرى" تتناول تحوّلات حضرية محددة تاريخيًا وجغرافيًا، بما يعزز التحليلات المقارنة عالميًا لفهم التغيّر الحضري[22].

تروي هذه الدراسة حكاية بئر السبع بوصفها مكانًا متجذرًا من خلال "جغرافيا السيرورة Process Geography"، مسلِّطة الضوء على "صنع العالم" المتأصل في مبادرات وآليات وممارسات محددة

(15) اللاتاريخية Ahistorical هي مقاربة أو تحليل يتجاهل البعد التاريخي أو يتعامل مع الظواهر بمعزل عن سياقها التاريخي وتطوّرها عبر الزمن. ولا يعني الوصف إنكار التاريخ، بل إهمال أثره في تفسير الظاهرة. في الدراسات الحضرية، يُقصد به عادةً تحليل المدن أو نشأتها من منظور ثابت أو شكلي، من دون مراعاة التحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أسهمت في تشكّلها تاريخيًا. (المترجمان)

(16) Joseph Ben–David & Gideon M. Kressel, "The Bedouin Market: the Axis around which Beer–Sheva Developed in the British Mandatory Period," *Nomadic Peoples*, vol. 39 (1996), pp. 3–27.

(17) Richard Rodger & Susanne Rau, "Thinking Spatially: New Horizons for Urban History," *Urban History*, vol. 47, no. 3 (2020), pp. 372–383; Tim Ingold, *The Perception of the Environment* (Abingdon: Routledge, 2000).

(18) يُستخدم مفهوم التجميع Assemblage في هذه الدراسة بالمعنى الذي تبلور في الدراسات الحضرية، حيث تُقارب المدينة بوصفها تشكّلًا اجتماعيًا – مكانيًا مفتوحًا، يُصنع ويُعاد صنعه عبر شبكات وممارسات وعلاقات متباينة تجمع بين الفاعلين البشريين، والبنى التحتية المادية، والمؤسسات، والتقنيات، والأنظمة القانونية، والانفعالات، والممارسات اليومية، والتمثلات، والفواعل غير البشرية. بهذا المعنى، لا يُختزل التجميع في ضمٍّ تراكمي لأجزاء متفرقة، بل يحيل إلى تركيب علائقي تحتفظ عناصره بدرجة من الاستقلالية، في حين تستمد قوتها ومعناها وأثرها من أنماط اتصالها بالعناصر الأخرى. (المترجمان)

(19) Colin McFarlane, *Learning the City* (Malden: Wiley–Blackwell, 2011).

(20) Thierry Boissière & Yoann Morvan, *Un Moyen–Orient ordinaire: Entre consommations et mobilités* (Marseille: Diacritiques Éditions, 2022).

(21) Sarab Abu–Rabia–Queder, "The Biopolitics of Declassing Professional Women in a Settler Colonial Context," *Current Sociology*, vol. 67, no. 1 (2019), pp. 141–158; Nasasra, "Beersheba and the Dynamics of a Palestinian City;" Ahmad Amara, "The Ottoman Tanzimat in the Palestinian Frontier of Beersheba (1850–1917)," in: Burhan Çağlar, Ömer Faruk Can & Hacer Kılıçaslan (eds.), *Living in the Ottoman Lands: Identities, Administration and Warfare* (Istanbul: Kronik, 2021), pp. 126–155; Alexandre Kedar, Ahmad Amara & Oren Yiftachel, *Emptied Land: A Legal Geography of Bedouin Rights in the Negev* (Stanford: Stanford University Press, 2020).

(22) Hart & Dantas; Özgür Sayın, Michael Hoyler & John Harrison, "Doing Comparative Urbanism Differently: Conjunctural Cities and the Stress–testing of Urban Theory," *Urban Studies*, vol. 59, no. 2 (2022), pp. 263–280.

تجعلُ من الفضاء الحضري موقعًا عمرانيًا مفتوحًا[23]. ويؤكد عبد الملك سيمون هذا المنظور، مجادلاً بأنّ سمة المدينة City–Ness "تشير إلى المدينة بوصفها شيئًا في طور التشكّل [...] [حيث] يتفاعل الناس والمساحات والأنشطة والأشياء بطرائق تتجاوز أي محاولة لتنظيمها"[24]. وقد وجّه التفكير في إيقاعات الصمود والتجريب، عوض الانطلاق من إطار نظري مُسبق، بحثنا نحو المكوّنات المادية والفكرية التي تُركّب، على نحوٍ عرضي، أحد التجميعات وتفككه[25]. ويقترح بيتر تايلور التركيز على أفعال التشبيك والتركيب بوصفها آليات لإنتاج معرفة عملية تُعد أساسية في تجميع عالم حضري متعدد النطاقات[26].

استجابةً لهذه المقترحات، سعى بحثنا الميداني إلى تتبّع المخيالات المكانية وأفعال صنع العالم التي اضطلع بها السبعاويون عبر الفترة الجيوتاريخية الممتدة بين عامَي 1840 و1936[27]، حيث أجرينا مقابلات شفوية[28] مع أشخاص متجذرين في العلاقات الاجتماعية لبئر السبع، وراجعنا يوميات وتقارير الرحالة الذين عاينوا نشاطات السبعاويين، كما أنجزنا بحثًا أرشيفيًا أصيلاً في المكتبة البريطانية، والأرشيف الوطني في المملكة المتحدة، ومحفوظات رئاسة الوزراء العثمانية في إسطنبول والقدس، بالاعتماد على صحف عربية وبريطانية وعثمانية، وسجلات دبلوماسية متاحة بالعربية والعبرية والإنكليزية، وأجرينا مسوحات ميدانية للبنية المورفولوجية الحضرية[29].

يُقدم بحثنا سرديات وتواريخ شفوية لعلاقات مكانية وزمانية متراكمة، تتيح إضاءات على لحظات التحوّل والتغيّر اليومية في الجنوب الفلسطيني[30]. يوظّف القسم الأول من الدراسة هذه السرديات

(23) Ignacio Farías & Thomas Bender (eds.), *Urban Assemblages: How Actor–Network Theory Changes Urban Studies* (Abingdon: Routledge, 2010).

(24) AbdouMaliq Simone, *City Life from Jakarta to Dakar: Movements at the Crossroads* (Abingdon: Routledge, 2010), p. 3.

(25) Catherine Durose et al., "Working the Urban Assemblage: A Transnational Study of Transforming Practices," *Urban Studies*, vol. 59, no. 10 (2021), pp. 2129–2146; McFarlane; Michael Woods et al., "Assemblage, Place and Globalization," *Transactions of the Institute of British Geographers*, vol. 46, no. 2 (2021), pp. 284–298.

(26) Taylor, *Extraordinary Cities*; Peter J. Taylor, *Advanced Introduction to Cities* (Cheltenham: Elgar, 2021).

(27) نبدأ من نهاية الحكم المصري في جنوب فلسطين وننتهي في عام 1936 مع بدء المرحلة الانتقالية التالية؛ أي حتى بداية الثورة الفلسطينية.

(28) أجرينا مقابلات شبه منظّمة مع سبعة وعشرين فلسطينيًا سبعاويًا في قضاء بئر السبع، ولاجئين سبعاويين في الأردن وغزة والخليل، وقرويين من غزة، إضافةً إلى عدد من أفراد عائلات سبعاوية وغزّية في الخارج ممّن وُلدوا وعاشوا في بئر السبع قبل عام 1948. واستفدنا من معطيات مقابلات أُجريت مع المفوّض البريطاني للمنطقة لورد أكسفورد جوليان أسكويث Julian Asquith، الذي خدم في بئر السبع خلال أربعينيات القرن العشرين.

(29) تشيرُ المورفولوجيا الحضرية Urban Morphology إلى دراسة الشكل المادي للمدينة وبنيتها العمرانية، بما في ذلك تخطيط الشوارع، وأنماط الأحياء، وتقسيمات الأراضي، وأنواع المباني، وتطوّر هذه العناصر وعلاقاتها عبر الزمن. ويُستخدم المفهوم في الدراسات الحضرية لفهم كيفية تشكّل النسيج العمراني للمدينة تاريخيًا، وكيف تتداخل بنيته المادية مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتقنية التي شهدتها المدينة. (المترجمان)

(30) Alicia Lindón, "The Lived City: Everyday Experiences, Urban Scenarios, and Topological Networks," *Geographica Helvetica*, vol. 74, no. 1 (2019), pp. 31–39; Boissière & Morvan.

والتواريخ لمناقشة العالم الحضري الدائم الصيرورة في قضاء بئر السبع بعد عام 1840، والمكوّنات الفكرية والمادية الرئيسة التي أسهم السبعاويون من خلالها وفي إطارها في (إعادة) تشكيله. بينما يُركّز القسم الثاني على الممارسات والعلاقات والدوائر المتعددة النطاقات التي اضطلع بها السبعاويون، في إطار تعاملهم مع التجميعات الحضرية المتحوّلة تحت ظلال السيطرة الترابية التي خلّفها تعاقب الإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية. وينتقلُ القسم الثالث إلى إيجاز النتائج، مُبرزًا آليات الاتصال والتركيب التي أسهمت في انبثاق لحظات التحوّل الحضري. وأخيرًا، تُبيّن الخاتمة كيف تُسهم حالة مدينة بئر السبع في إعادة التفكير في هذا النمط من التاريخ الحضري المُتصل.

أولًا: العالم الحضري الدائم الصيرورة

بئر السبع يا بلدنا من ترابك انجبَلْنا.

شهد العالم الحضري الدائم الصيرورة في جنوب فلسطين، خلال المئة عام التي أعقبت الانسحاب المصري، تواصلاً وتحوّلاً في آن. وفي إطار هذه الجغرافيا المكانية الإقليمية، أسهمت أربعة مكوّنات فكرية ومادية (المخيال المكاني، والبنى التحتية السوسيو-تقنية، والإنتاج الزراعي، وإنتاج المعرفة/ تقديم الخدمات) في توفير قدرٍ من الاستقرار، وفي توليد إعادة التشكّل في الوقت ذاته؛ إذ عمد ساكنو بئر السبع والمستقرون فيها إلى توسيع "مكانيتها" Placeness وهويتها، وتركيب العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية، وتيسير مستويات متزايدة من الترابط فيها.

1. المخيال المكاني الحيوي

تشير الأدلة، في هذه اللحظة المفصلية، إلى وجود مخيالٍ مكانيٍّ مشترك اضطلع بدور فاعل، إذ أدرج بئر السبع ضمن الفضاء النقبي، وجعلها، من خلاله، فضاءً للتميّز والتفرّد على مستويات متعددة. وقد شمل هذا المخيال مناطق تمتد شمال شرق بئر السبع إلى تلال الخليل حتى مدينة الخليل، وجنوبًا إلى العقبة، وغربًا إلى وادي العريش، ثم إلى الجنوب الغربي حتى عوجا الحفير، وإلى الشمال الغربي حتى غزة، وعلى امتداد الساحل الفلسطيني حتى يافا، وشرقًا عبر وادي عربة إلى معان الأردنية. وقد اتسم هذا الفضاء العلائقي "المتكوّم" بكثافة وتماسك إدراكي تشكّلا عبر الذاكرة والفاعلية، في ما يتعلق بإمكان الوصول والحضور والغياب، والفاعلين والمسارات والمجالات، والأمكنة والمشاهد، والممارسات، وأنماط الحكم، والمجتمعات المُركّبة، وإمكانات الفعل وحدوده.

تشيرُ الروايات الشفوية، إلى جانب المصادر العثمانية والبريطانية، إلى أن تسميات بئر السبع والنقب وبلاد غزة كانت مصطلحات استخدمتها مجتمعات جنوب فلسطين لوصف عالمها العلائقي والتعبير عن إحساسها بالمكان والانتماء إليه. وكان بدو بئر السبع يشيرون إلى أنفسهم بوصفهم العرب أو "حضر بئر السبع" (أو السبعاويين، وهو المصطلح المستخدم حتى اليوم لدى عرب النقب ولاجئيهم في الأردن). وفي هذه الدراسة، نعتمد "منظورًا معيشيًا" علائقيًا، ومن ثم نستخدم مصطلح السبعاويين، بمعناه الأوسع الذي تشكّل ذاتيًا، للإشارة إلى جميع البدو والقرويين وغيرهم، مثل التجار والمسؤولين

الغزيين والمجدلاويين والخليليين، ممّن "سكنوا واستقروا" في هذا الفضاء المادي والفكري، وصنعوا عوالم مقصودة وشكّلوا "مكانهم" الاجتماعي[31].

عاش السبعاويون نسختهم الخاصة من التَمَدْيُن المتصل، يتخيّلون التجميع ويمارسونه، كما لو أنهم منخرطون تمامًا في هذا العالم الحضري ومنتمون إليه وإلى عوالمه الحياتية التي تكوّنه. وقد اكتسب هذا التجميع، بالنسبة إليهم، دلالات عميقة ذات طابع إبراهيمي، إلى جانب ممارسات مكانية جماعية. ثم إن المادية القائمة وما ارتبط بها من تراث الأبنية والأطلال المتناثرة داخل فضاء بئر السبع والممتدة عبر المشهد الطبيعي، وفّرت مورفولوجيا حضرية ظلّت تهمس على الدوام بإمكانات اجتماعية – اقتصادية ماضية ومستقبلية. ويُعدّ المشاع الواسع الذي يُشكّله مجمّع الآبار والهَراب، مثل آبار وهَراب تل الملح وبئر المشاش، الواقعة على بعد عشرة أميال شرق بئر السبع (الصورة 1)، مثالاً على كيفية تعزيز قيمة هذا العالم الحضري و"مكانيتِه" عبر العمل ورأس المال الاجتماعي اللذين استثمرهما السبعاويون. وقد أدرك هذه القيمة أيضًا القادمون من خارج هذا الفضاء ممّن عبروه[32]. وأضفى التاريخ الإقليمي السوسيو-تقني من الاستثمار المستمر وصيانة نظم الزراعة المعتمدة على مياه الجريان السطحي، وما ارتبط بها من تجميعات البنية التحتية (مثل الصهاريج، ومواقع الدفن، والأسوار الحجرية، والمصاطب الزراعية)، استمراريةً زمنية لنظام الأراضي الأصلاني هذا، المتجذّر في الحوكمة المكانية العشائرية للأرض والمياه، والعادات الثقافية، والأنماط المقبولة لتطوير الزراعة[33].

الصورة (1)

آبار قرية تلّ الملح (وادي الملح-المشاش) خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر

المصدر: The Palestine Exploration Fund Archives, PEF/P/GAR/61385,1387.

(31) Ingold.

(32) E. R. Sawer, *Annual Report 1926, Department of Agriculture, Forestry, Fisheries, Palestine*, Greek Conv. Press (London; British Library).

(33) Meraiot, Meir & Rose.

أدّت بئر السبع، بوصفها "مكانًا" داخل هذا العالم المتشابك ومن خلاله، دورًا تاريخيًا محوريًا في دوائر التجارة والحج والخدمات التي ولّدت فرصًا لا حصر لها لسكان الجنوب الفلسطيني. وقد أكد المشاركون في المقابلات ذلك بقولهم إن "مركز الشرطة والبئرين الاستراتيجيتين في تل الملح شرق بئر السبع، أصبحوا مواقع رئيسة لتجمّع التجار من الخليل والقدس وغزة والعشائر المحلية، حيث جرت عمليات بيع وشراء الماعز والشعير والقمح والأغنام والجمال والتبغ ومنتجات الألبان"[34]. بعبارةٍ أخرى، كان ثمة قدر ملحوظ مما يسميه تايلور "سِمَة البلدة" قبل ظهور الكثافة العمرانية أو تخطيط المدن أو المباني الضخمة، كما كانت "سِمَة المدينة" فاعلة قبل إنشاء السكك الحديدية والتلغراف؛ ما جعل بئر السبع تتجسّد مكانًا مركزيًا متصلاً، تتقاطع فيه إمكانات متخيَّلة للتنقّل والاستقرار[35].

2. البنى التحتية السوسيو-تقنية

كانت ثمة بنى مادية أخرى ذات دلالة، بما ارتبط بها من مخيالات سوسيو-تقنية؛ إذ تؤكد الدراسات الحضرية الأثر المكاني المتجسّد للبنى التكنولوجية، وما تُحدثه من تأثيرات متسلسلة في إنتاج سِمَة المدينة/ المكانية[36]، في حين يُعدّ الأشخاص الذين يمتلكون "المعرفة" بنى تحتية أيضًا[37]. ومن خلال أبعادها المادية والمؤسسية والخطابية، تؤدي البنى السوسيو-تقنية بين الحضرية دورًا مضاعِفًا فاعلاً في تحويل العلاقات الحضرية وتيسير التحوّلات.

امتلك السبعاويون وراكموا معرفة مكانية أصلانية عملية فريدة لم تكن متاحة بسهولة لساكني المدن والأطراف، وهي معرفة بالتنقّل في العالم الواقعي، وتشملُ تخطيط المسارات، ولوجستيات التنقل، والإمكانات التي يتيحها الابتكار والجهد، ونقاط المواقع والتحولات الطوبوغرافية، وقواعد الاهتداء والاستدلالات الحدسية، والمناوبة، والموارد، والمخاطر. وقد تخيّلت الممارسات والشبكات العلائقية للسبعاويين عالمًا حضريًا تبدو فيه غزة والخليل ومجدل عسقلان ووادي عربة ومعان متقاربة جغرافيًا يُمكن بلوغها، وغنية بالفرص الجاذبة. وكان مفهومهم لما يعنيه "المحلي"، ولـ"حدود" عالمهم اجتماعيًا واقتصاديًا ورمزيًا، وكيفية امتداده وانطوائه باستمرار، يصوغ مدينية فاعلة مُميزة. ويتجلى ذلك في طيف واسع من القرارات التي اتُّخذت بعزم، وفي تسخير الموارد للوصول إلى الإمكانات الكامنة وادعائها من خلال الاشتغال على هذا التجميع[38]. وكانت عمليات البيع المنتظمة

(34) الحاج فنخور مصطفى النصاصرة المعني، مقابلة شخصية، تل الملح، 2021.

(35) تشير "سِمَة المدينة" إلى حصيلة علائقية ناجمة عن توسّع التشبيك والتجارة والتبادل واتصالية البنية التحتية، بما يعيد تشكيل "المكان" ودوره الاستراتيجي من خلال تشابكه مع منظومة متفرقة من المستوطنات/ العُقد المرتبطة به. أمّا "سِمَة البلدة" Town-ness، فتعني تكثيف الشبكات الاجتماعية – الاقتصادية المحلية للتجارة والعلاقات الاجتماعية في مكانٍ ما، أو تركّزها وانكماشها، عبر عمليات التجميع والتركيز. ينظر: Taylor, *Advanced Introduction to Cities*.

(36) Woods et al.

(37) AbdouMaliq Simone & Edgar Pieterse, *New Urban Worlds: Inhabiting Dissonant Times* (Cambridge: Polity Press, 2017).

(38) Durose et al.

لمنتجات البدو في أسواق الخليل وغزة والمجدل وبرير والفالوجة، وما يقابلها من مشتريات، تعبيرًا عن اقتصاد سياسي لعالم حضري تتبدل فيه الخدمات التي يقدّمونها والمنتجات التي ينتجونها تبعًا لتذبذب العلاقات.

أسهم السبعاويون، على امتداد الزمان، في إنتاج تجميعات التجارة والحج بين الحواضر، الممتدة جنوب النقب وغربها وشرقها وشمال غربها وشمال شرقها وجنوب شرقها. فقد أدّى تقديم خدمات النقل والحماية والإرشاد والتزوّد بالمؤن، للتجار والقوافل والحجاج والمسافرين، إلى غرز السبعاويين داخل دوائر حضرية تربطُ القاهرة وغزة بشرق الأردن، وتمتد جنوبًا إلى عوجا الحفير والعقبة. على سبيل المثال، كان للسبعاويين دور حاسم في حركة الحجاج على طول الطرق الإسلامية لكلٍّ من درب الحج المصري، الذي كان يعبر جنوب شرق النقب نحو العقبة، ودرب الحج الشامي الممتد جنوبًا من دمشق إلى الحجاز. وشملت التجميعات المادية والمتخيَّلة للحصون المتصلة والخانات والآبار والأطلال المقدسة ومحطات الاستراحة، عنصرًا ماديًا أساسيًا تمثّل في القافلة نفسها؛ إذ كان درب الحج المصري يتطلّب ما بين 800 و1600 جمل سنويًا، إلى جانب سائقي الجمال والرعاة المستأجرين للرحلة، وكانت طرق حج أخرى تتقاطع عبر النقب وتتطلب خدماتهم[39]. وبعد عام 1840، أتاح ازدهار السياحة إلى الأراضي المقدسة فرص عمل جديدة للسبعاويين. على سبيل المثال، قدمت شركات سياحة دولية، مثل مكتب توماس كوك وأبناؤه Thomas Cook and Son's في يافا عام 1874، مسارات سياحية "على خطى إبراهيم" إلى بئر السبع عبر الخليل أو غزة. ومنذ خمسينيات القرن التاسع عشر، كان المرشدون البدو المرافقون للسياح الغربيين العابرين للنقب يدركون أهمية إحلال أسماء المواقع التوراتية محلّ أسماء المواضع المحلية، مدركين سطوة الجغرافيا المقدسة التي كان أولئك الزائرون يتخيّلونها[40].

أصبحت مواقع بعينها، حيث تتقاطع مسارات متعددة (غالبًا عند الآبار أو الأودية البارزة)، ذات أهمية متزايدة في توسيع الدوائر الإقليمية، واكتسبت في الوقت ذاته معنى مكانيًا أعمق. ومن بين هذه المواقع بئر السبع، وسمسم، والفالوجة، ومجدل عسقلان، والرحيبة، وتل الملح، والظاهرية، والخليل، وبيت جبرين، ويطا. وكانت قرية برير، على سبيل المثال، مركزية في الاقتصاد الإقليمي؛ إذ ربطت غزة بالخليل وخدمت المجتمعات البدوية[41]. واعتمدت تجارة بيت لحم العالمية المتنامية بالمنتجات الدينية المصنوعة من صدف اللؤلؤ، على شحنات قادمة من البحر الأحمر عبر الجنوب الفلسطيني. وكانت مجتمعات جنوب شرق الأردن تتاجر شرقًا وغربًا عبر مركز التبادل الإقليمي في

(39) Robert Schick, "Who Came on Pilgrimage to Jerusalem in the Mamluk and Ottoman Periods: An Interreligious Comparison," *Für Seelenheil und Lebensglück* (2018), pp. 243–260.

(40) Arthur Penrhyn Stanley, *Sinai and Palestine* (London: John Murray, 1875), p. 101.

(41) Benjamin Saidel et al., "An Archaeological Survey of the Arab village of Bureir: Perspectives on the Late Ottoman and British Mandate Period in Southern Israel," *American Schools of Oriental Research*, vol. 383, no. 1 (2020), pp. 141–173.

الكرك (المرتبط ثنائيًا بالخليل وبئر السبع)، وكذلك عبر معان بوصفها بوابة إلى غزة أو الحجاز[42]. وكانت عشائر الحويطات من محيط البتراء تذهب إلى القاهرة "لنقل جيش الباشا عبر الصحراء إلى العقبة ونويبع"، في حين كان السكان المحليون يشترون المؤن من الخليل وغزة ليبيعوها "بأرباح كبيرة للحجاج المُرهقين" على طول طريق الحج[43]. وفي مطلع القرن العشرين، دفعت السلطات العثمانية للعشائر مقابل حماية البنية التحتية الجديدة للتلغراف والسكك الحديدية[44]. ونتيجةً لمثل هذا التركيب والترابط، غدا النقب (الذي يُترجم بمعنى "الممر" أو "الطريق الجبلية") فضاءً بينيًا، سوّق فيه السبعاويون لمعرفتهم المكانية الأصلانية المتخصصة والفريدة بمسارات هذا العالم وجغرافيته ومجالاته المتعددة.

3. الإنتاج الزراعي

تكثّفت أنشطة صنع المكان، والمراكمة، وتوسّع الاستثمار الرأسمالي وتيسير الشبكات الاقتصادية، عبر جنوب فلسطين خلال الفترة 1840–1900، وتعزّزت معها الهوية المكانية لبئر السبع ومركزيتها، فازداد الإنتاج الزراعي المُخصص للتصدير استجابةً للإمكانات الآخذة في الاتساع، وأُبرمت شراكات، وقُدّمت قروض مالية[45]. وقد علّق رحّالة أوروبيون على الإنتاج الزراعي، وعلى الإيثوس[46] المكانية في بئر السبع، وعلى الدور الواسع الذي اضطلع به السبعاويون في نقل السلاح والمهمات الشرطية الحدودية. وكان أحد التجميعات التقليدية يتمحور منذ زمنٍ طويل حول الماشية، لا سيّما الإبل والأغنام، التي رُبّيت في أنحاء القضاء الجنوبي، وبِيعت في أسواق غزة والمجدل والفالوجة وبرير وأسدود والخليل ومعان، كما كانت تُنقل من غزة إلى مصر ويافا والقدس. وانخرط تجار المواشي من خارج الأردن في هذه التجارة المتنامية، معزّزين مركزية سوق بئر السبع بما جلبوه من أغنام وصوف[47]. وأخذت الخليل تؤدي على نحوٍ متزايد دور السوق المركزية ومركز تسوّق لبدو الجنوب والشرق، حيث كانت سلع النقب تُجلب إليها للبيع[48]. وأسهمت محالّ الخياطة والملابس المملوكة للبدو في بئر السبع وغزة وبرير في ذيوع شهرة جنوب فلسطين[49]، في حين انخرط آخرون في تجارة

(42) Eugene L. Rogan, *Frontiers of the State in the Late Ottoman Empire: Transjordan, 1850–1921* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(43) John Lewis Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London: John Murray, 1822), p. 415.

(44) Rogan.

(45) Amara, "The Ottoman Tanzimat."

(46) يُشير مصطلح الإيثوس Ethos، الذي يُترجم في بعض الأدبيات العربية إلى "الخُلُق" أو "الروح"، إلى منظومة القيم والسمات الثقافية والمعنوية التي تميّز جماعة أو مكانًا بعينه، وتنعكس في أنماط السلوك والممارسات والتصوّرات المرتبطة به. وفي سياق المكان، يدلّ المصطلح على روح المكان أو طابعه الثقافي والاجتماعي المميّز؛ أي الكيفية التي يُدرَك بها المكان ويُعاش، وما يرتبط بذلك من ممارسات وعلاقات ومعانٍ متجذّرة فيه. (المترجمان)

(47) Ben–David & Kressel, pp. 3–27.

(48) Johann Büssow, *Hamidian Palestine: Politics and Society in the District of Jerusalem, 1872–1908* (Leiden: Brill, 2011).

(49) الحاج أبو عامر الصانع، مقابلة شخصية، اللقية، 2019.

الصوف والنسيج[50]. و"كانت العبايات التقليدية تُباع في غزة والفالوجة وبرير وما وراءها"[51]، وهي تجارة وسّعتها لاحقًا عائلة الشرفا التي أنشأت عددًا من المتاجر في غزة وبئر السبع، "كان بعضها مخصّصًا للملابس التقليدية للرجال والنساء"[52]. وقد جرى الاتجار بروث الأغنام والفراء في سوق بئر السبع، في حين كانت منتجات الألبان تُنقل إلى أسواق غزة والفالوجة[53].

بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، أخذ المنتجون السبعاويون يستفيدون من خيارات سوقية جديدة لمحاصيلهم الزراعية، عبر زيادة الإنتاج وتوسيع البنى التحتية التي يسّرت زراعة الأودية والسدود والحقول[54]. فقد بيعت الحبوب (القمح والشعير)، من الحقول المتناثرة عبر النقب وشرق غزة وجنوب تلال الخليل، أساسًا في أسواق غزة أو صُدّرت عبر البحر الأبيض المتوسط إلى القارة الأوروبية[55]. وصدّر البدو جزءًا كبيرًا من إنتاجهم من الشعير لتزويد صناعة الجعة البريطانية، وقد بلغت قيمة الصادرات نحو ستمئة ألف دولار أميركي عام 1906، متجاوزة تجارة برتقال يافا[56]. وتؤكد الأرشيفات البريطانية أهمية هذه التجارة؛ إذ جاء فيها: "الشعير المنتج في القضاء الجنوبي من فلسطين ذو جودة ممتازة [...] [و] يعتمدُ تقريبًا اعتمادًا كاملاً على أمطار الربيع المُبكّرة في آذار/ مارس ونيسان/ أبريل [...]. ففي عام 1908 صُدِّر فعليًا 38 ألف طن [...] وراوحت الأسعار المدفوعة عام 1908–1909 بين 24 شلنًا و9 بنسات و25 شلنًا و9 بنسات، بل بلغت حتى 26 شلنًا لكل كوارتر quarter"[57].

وقد زُرعت محاصيل أخرى مُدرّة للدخل، منها التبغ شمال شرق بئر السبع[58]؛ إذ استجاب المنتجون السبعاويون للطلب المتزايد على التبغ متوسط الجودة (البلدي) في أسواق القاهرة وغزة. وقد ارتفعت الصادرات بعد عام 1900 مع توسّع صناعة السجائر في القاهرة والخليل والقدس[59]. ويروي أحد السبعاويين المحليين: "كنّا نزرع حقولاً من التبغ في أرضنا، كما فعلت عائلات كثيرة أخرى، وكنا نبيعه في أسواق بئر السبع وغزة والفالوجة، على الرغم من القيود البريطانية والعثمانية على تسويق

(50) Edward Robinson, *Later Biblical Researches in Palestine, and in the Adjacent Regions: A Journal of Travels in the Year 1838*, vol. I–II (Boston: Crocker and Brewster, 1874).

(51) الحاج خالد الطيطي، مقابلة شخصية، مخيم الفوّار للاجئين، الخليل، 2021.

(52) الحاج نبيل الشرفا، مقابلة شخصية، بئر السبع، 2019.

(53) أحمد أبو عوّاد، مقابلة شخصية، عمّان، 2021.

(54) Meraiot, Meir & Rose.

(55) Robinson, *Later Biblical Researches in Palestine, and in the Adjacent Regions*.

(56) Roger Owen, *The Middle East in the World Economy, 1800–1914* (New York: Methuen, 1981).

[لترجمة عربية، يُنظر: روجر أوين، **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي: 1800–1914**، ترجمة سامي الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1990). (المترجمان)]

(57) The National Archives, UK (TNA), CO 733/44.

(58) Claude Reignier Conder & Horatio Herbert Kitchener, *The Survey of Western Palestine*, vol. III: *Judaea* (London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1883).

(59) Relli Shechter, *Smoking, Culture and Economy in the Middle East: The Egyptian Tobacco Market 1850–2000* (London: Bloomsbury, 2006).

التبغ"[60]. وقد وفّر البدو القِلْو (المُستخدم في صناعة الصابون النابلسي) لصناعات الصابون في الخليل ويافا وغزة والسلط، وكذلك لصناعة الزجاج في الخليل[61].

ارتكز اقتصاد الساحل الفلسطيني على بساتين النخيل في دير البلح وغزة. وزرع أهالي المجدل النخيل ومحاصيل أخرى مُدرّة للدخل، منها التين والجميز والمشمش واللوز والسمسم والليمون والزيتون والبرتقال والعنب والتوت والقطن والبصل الأخضر الشهير (المنسوب إلى عسقلان)[62]. وكان العنب المجفف القادم من شرق الأردن، الذي أنتجته عشيرتا الرفايعة والسعودي جنوب غرب الشوبك، يُباع في أسواق غزة وبئر السبع[63]. واعتمدت أسواق معان خلال موسم الحج على محاصيل مستوردة من غزة والخليل[64]. وقد أُنتج الفحم النباتي للتصدير إلى سوق القاهرة[65]، وجُمِعت عشبة البَعيثران في غزة والخليل وبِيعت فيهما. وجاء توسّع صناعات السكر والملح عاملاً حاسمًا في تعميق العلاقات الاقتصادية بين غزة وبئر السبع؛ إذ استجاب التجار للفرص الجديدة عبر تيسير توزيعه إقليميًا[66]. وكانت غزة ويافا مركزين رئيسين لإنتاج صابون زيت الزيتون، في حين اشتهرت قرية سمسم (قضاء غزة) إقليميًا بإنتاج السمسم. وقد أسهم هذا التجميع وتيسير التشبيك في ربط السبعاويين بدوائر تبادل إقليمية وعالمية أوسع.

وقد توسّع الإنتاج وتعزّزت المبيعات مع ازدياد استثمار السبعاويين في تنويع الزراعة[67]. وشكّلت غزة ويافا ميناءين رئيسين لجنوب فلسطين في ظلّ اتساع حركة التصدير والاستيراد، وقد أدرك البريطانيون واليونانيون والإيطاليون فرص التجارة في المنطقة، فعمدوا إلى تعيين ممثلين قنصليين في غزة[68]. وفي عام 1905، شُحنت صادرات ملأت خمسًا وعشرين سفينة، إضافةً إلى عدد كبير من المراكب الشراعية، محمّلةً بـ"الشعير، والدرة [القمح المصري]، والحنظل، والسمسم، والتمر، والفواكه، والدواجن، والصوف، والجلود، والفراء"[69]. غير أنّ حركة التجارة عبر غزة كانت قد تراجعت كثيرًا مقارنةً بازدهار ميناء يافا، بحلول عام 1914. مع ذلك، استمرت العلاقات المتبادلة

(60) الحاج أحمد أبو حميد، مقابلة شخصية، كسيفة، 2018.

(61) Gudrun Krämer, *A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel* (Princeton: Princeton University Press, 2011).

(62) Conder & Kitchener.

(63) Burckhardt.

(64) Eveline Van der Steen, *Near Eastern Tribal Societies during the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town* (London/ New York: Routledge, 2013).

(65) Burckhardt.

(66) **جريدة فلسطين**، 1942/9/19.

(67) Charles Issawi, *The Fertile Crescent, 1800–1914: A Documentary Economic History* (New York: Oxford University Press, 1988).

(68) Dotan Halevy, "Gaza's Happy Hour? When Late Ottoman Palestine Met the Victorian Drinking Culture," *Seeing the Woods*, 8/6/2018, accessed on 21/3/2022, at: https://acr.ps/hBxVKuX

(69) Martin Abraham Meyer, *History of the City of Gaza: From the Earliest Times to the Present Day*, Columbia University Oriental Studies, vol. 5 (New York: Columbia University Press, 1907), p. 107.

بين الزراعة والحِرف في التوسع، مدفوعةً بطفرة سكانية في مدن الجنوب، وبازدياد التَمَدْيُن استجابةً للاستثمارات الفلسطينية، وبحركة البناء الجديدة، والتصنيع، والتوسّع الزراعي. غير أنّ انقطاعات، مثل اندلاع الحرب العالمية الأولى، أعادت تشكيل كثير من التجميعات العابرة للمحليات؛ إذ توقفت صادرات الشعير من بئر السبع، قبل أن تُستأنف في عهد الاستعمار البريطاني.

4. إنتاج المعرفة الأصلانية وتقديم الخدمات

أسهمت تجميعات المعرفة الأصلانية الناتجة من توسّع التعليم والتدريب وتقديم الخدمات، وما رافقها من عمليات تركيب وتيسير، في تعميق كلٍّ من "سِمَة البلدة" و"سِمَة المدينة" في بئر السبع. وخلال أواخر العهد العثماني، أصبح التعليم متاحًا أكثر في أنحاء جنوب فلسطين، مدفوعًا جزئيًا بتوسّع خدمات الدولة، لكن أساسًا برغبة الطبقة الوسطى السبعاوية. وقد حظي التعليم بتقديرٍ كبير، إلى درجة تبرّع البدو بأموالٍ لإنشاء مدارس خاصة بعشائرهم[70]. وفي عام 1904، افتُتحت في بئر السبع مدرستان باسم المدرسة الأميرية (بئر السبع الأميرية الرشدية)، إحداهما للبنين والأخرى للبنات، وقدمتا خدمات السكن والرعاية الصحية والمكتبات. والتحق بهاتين المدرستين طلبة من العشائر المحلية، ومن عائلات في غزة وبئر السبع والخليل والقرى المجاورة. وأُنشئت مدرسة زراعية وأخرى صناعية[71]. وبحلول عام 1913، كانت المدرسة الزراعية الجديدة تضم ثلاثين طالبًا من الجنوب الفلسطيني[72].

سعى أولياء الأمور من الجنوب الفلسطيني أيضًا بجدٍ إلى خلق فرص تعليمية خارج جنوب فلسطين. وكان من الخيارات المبكرة لبعضهم مدرسة أبناء للعشائر (مدرسة عشيرت) التي أُنشئت في إسطنبول عام 1892، حيث تلقّى بعض الطلبة منحًا مالية ومخصصات سفر من وزارة الداخلية العثمانية. وعُيّن بعض طلبة بئر السبع في وظائف في إسطنبول وأقاموا هناك سنواتٍ طويلة[73]. وقد التحق طلبة من بئر السبع بمدارس ثانوية في صفد والقدس وبيسان ويافا وبيت لحم[74]. وتابع آخرون دراسة الشريعة في الأزهر بالقاهرة[75]. وبعد الحرب العالمية الأولى، استقبلت الجامعة الأميركية في بيروت وجامعة دمشق طلبةً من بئر السبع، في حين التحق آخرون بالكلية العربية في القدس، التي تُعدُّ فرعًا لجامعة لندن[76].

لم توجد مدارس ثانوية في بئر السبع، لكن غزة وفّرت فرصًا تعليمية للبنين والبنات؛ ما جذب طلبةً من القرى الجنوبية ومن بئر السبع[77]. واستمرت المدرسة الإعدادية في بئر السبع في عملها خلال فترة

(70) **جريدة فلسطين**، 1913/6/6.

(71) *Musavver Çöl*, 1/2/1917.

(72) TNA, FO 195/2287.

(73) *Musavver Çöl*, 15/2/1917; Başbakanlik Ottoman Archives (BOA), MF.MKT: 967/66, and 663/41.

(74) واصل أبو جابر (الجبّارات)، مقابلة شخصية، مخيم البقعة للاجئين، الأردن، 2019.

(75) **جريدة الدفاع**، 1935/3/21.

(76) فريح أبو صعيليك، مقابلة شخصية، الأردن، 2021.

(77) **مجلة هنا القدس**، 1940/12/22.

الاستعمار، بنحو 340 طالبًا منتسبًا. وتُظهر وثائق مكتب المستعمرات أنّ تحسين التدريب والمرافق التعليمية لأبنائهم كان يحظى بأهمية قصوى لدى أهل الجنوب الفلسطيني، الذين ضغطوا على السلطات البريطانية لتوسيع هذا المجال. وواصل البريطانيون منح التعليم المجاني؛ "إذ كانت سابقة تقديم التعليم المجاني في ظروف معينة قد أُرسيت في العهد العثماني"[78]. وقد جمعت الجماعة المحلية أموالاً كبيرة لتعزيز التعليم المحلي، غير أن الحكومة، كما ورد في تقرير عام 1932، أخفقت في تخصيص موارد كافية لتوسيع النظام التعليمي[79].

حاول بعض المسؤولين البريطانيين القيام بدور أكبر في تحسين الجانب التعليمي. فقد أسّس لورد أكسفورد، مساعد مفوّض قضاء بئر السبع خلال الفترة 1943–1945، ثلاث مدارس بدوية في القضاء، وساعد البدو على تحسين مرافق التعليم المحلية، ويسّر انتقال الطلبة إلى غزة ويافا لمتابعة تعليمهم[80]. وقد شدّد، في مقابلة أُجريت معه في أيلول/ سبتمبر 2009، على أن البدو كانوا شديدي الحرص على تعليم أبنائهم، غير أن أوضاعهم الاقتصادية لم تكن تسمح بإلحاق جميع أبنائهم بالتعليم العالي[81]. وسعى البدو الذين تربطهم علاقات وثيقة بالمسؤولين البريطانيين إلى الحصول على دعم لانتزاع فرص تعليم متقدمة في الخارج، مثل إرسال أبنائهم للدراسة في أكسفورد أو كامبريدج.

تبدّل النظام التعليمي مع إدخال معلمين من الخليل والقدس وغزة والفالوجة ويافا ومصر، الأمر الذي أتاح التفاعلات بينهم وبين معلمين محليين ينتمون إلى عشائر مختلفة[82]، وكان بعضهم قد تلقّى تدريبه في يافا[83]. وضمت المدرسة الأميرية للبنات في بئر السبع نحو 150 طالبة، وأدارتها مديرات قدمن من الجامعة الأميركية في بيروت أو من قلقيلية أو بيت لحم[84]. وتمكّن عدد من الخريجات من إتمام تعليمهن العالي في إسطنبول والقدس والقاهرة[85].

أسهمت الخدمات القضائية التقليدية وآليات حلّ النزاعات أيضًا في نسج هذا العالم الحضري عبر دوائر الثقة والحكم. فقد أدّت جهود المحاكم العشائرية ووجهاء العشائر في الصُلحة، إلى ترابط المجتمعات عبر سيناء وبئر السبع وشرق الأردن والخليل وغزة. ولاحظت مجلة **أخبار لندن المصوّرة** أنّ "البدو في بئر السبع يجتمعون كل يوم ثلاثاء من المناطق المحيطة لتسوية النزاعات [...] وهناك خمسة عشر قاضيًا من شيوخ العشائر المحلية، يتعاملون مع قضايا الضرائب والأراضي

(78) TNA, CO 733/225/5.

(79) TNA, CO 733/220/5.

(80) The Gaza and Bir al–Saba' personal diaries of Julian Edward George KCMG (1964), 2nd earl of Oxford & Asquith (Lord Oxford), Frome, Somerset, UK (LO Private Papers).

(81) لورد أكسفورد جوليان أسكويث، مقابلة شخصية، فروم، سومرست، المملكة المتحدة، أيلول/ سبتمبر 2009.

(82) **جريدة فلسطين**، 1934/6/30.

(83) الحاج إسماعيل العمور، مقابلة شخصية، 2018.

(84) Gawain Bell, *Shadows on the Sand: The Memoirs of Sir Gawain Bell* (London: C. Hurst, 1983).

(85) **جريدة الدفاع**، 1934/4/27.

والخلافات العائلية"[86]. ويروي أحد القضاة البدو أنّ "مسؤولاً بريطانيًا كان يُرافق القضاة في بعض الأحيان، ويعبرون الحدود إلى شرق الأردن وسيناء، حيث تُعقد جلسات صلح عشائرية لمعالجة النزاعات المرتبطة بالأرض والدم"[87]. وأفادت صحيفة **ذا تايمز** بأنّه "تقرر عقد مؤتمر عربي دولي، بمشاركة ممثلين من فلسطين وسيناء وشرق الأردن، في بئر السبع. وقد حضرت المؤتمر عشائر بارزة من بئر السبع وسيناء وشرق الأردن، يرافقها مسؤولون بريطانيون"[88]. ولم تكن الحدود السياسية ذات شأن يُذكر خلال الفترة قيد الدراسة؛ إذ كان يُستدعى الشيوخ ذوو السمعة الطيبة لإجراء الصُلحة والفصل في النزاعات لدى عشائر أخرى حيثما طُلب منهم، وقد أسهمت هذه العلاقات في وصل عشائر وعائلات قضاء بئر السبع وشمال سيناء بنظيراتها في غزة والخليل وبئر السبع[89].

بحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت العلاقات والشبكات الكثيفة المتعددة النطاقات التي ذكرناها سابقًا قد غيّرت هذا الفضاء الحضري ووسّعته. فقد أظهرت بئر السبع "سِمَة البلدة" من خلال مركزية سوقها، وروح المكان، ومنشآت المياه الواسعة التي ثبّتها نظام حوكمة جماعي. وقد تجلّت فيها "سِمَة المدينة" الناشئة من موقعها المحوري على تقاطعات مسارات النقل والتجارة التي ربطت المجدل بالكرك، والخليل بغزة. ورغم قلّة المباني أو مؤشرات التَمَدْيُن التقليدية، كانت بئر السبع مركزًا حضريًا ماديًا وفكريًا للانفعالات والمعاني، شاركت في إنتاج جغرافيته المكانية العشائر والتجار والقضاة والمنتجون الزراعيون. وأسهم "أسلوب حياة" حضري سبعاوي، اتّسم بالابتكار والوعي بذاته، والذي تَشكّل من خلال العقود والتمويل والمعرفة الأصلانية وشراكات وشبكات ثقة مُركّبة، في تجسيد اقتصاد سياسي حضري في جنوب فلسطين.

ثانيًا: ظلال السيطرة الترابية والكوزموبوليتانية

أخذت الدول البعيدة تتدخّل على نحو متزايدٍ في هذا التعقيد الذي يميّز جنوب فلسطين، ساعيةً إلى فرض منطقها الترابي ومِخيالاتها الخاصة بالضبط الاجتماعي والممارسات الاقتصادية والأطر التنظيمية والتَمَدْيُن الحداثي؛ أي ما يمكن تسميته "ظلًّا ترابيًا" Territorial Shadow أخذ يطارد هذا العالم الحضري ويعيد تشكيله[90]. وفي هذا الحيّز المتبدّل، واصل السبعاويون العمل داخل التجميعات الجديدة الناشئة وعبر فضائها، مُسهمين في بروز عالم حضري أكثر كوزموبوليتانية.

(86) *The Illustrated London News*, 9/7/1938.

(87) الشيخ واصل أبو جابر (الجبّارات)، مقابلة شخصية، مخيم البقعة للاجئين، الأردن، 2021.

(88) *Times*, 4/7/1930.

(89) Mansour Nasasra, "Ruling the Desert: Ottoman and British Policies towards the Bedouin of the Naqab and Transjordan region, 1900–1948," *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 42, no. 3 (2015), pp. 261–283.

(90) Taylor, *Advanced Introduction to Cities*.

1. التَمَدْيُن الإمبريالي

ابتداءً من خمسينيات القرن التاسع عشر، أُدخلت عبر أنحاء الإمبراطورية العثمانية سلسلة من الإصلاحات البلدية والإدارية الترابية ومبادئ تنظيمية جديدة مستمدة من عقلانية حداثية، شملت قوانين الأراضي لعام 1856، وقانون الولايات لعام 1864، وقانون البلديات لعام 1877. وبعد سنواتٍ قليلة، كثّف العثمانيون جهودهم لتشجيع النمو الاقتصادي وترسيخ سيطرتهم الإقليمية عبر إنشاء مراكز إدارية جديدة؛ في الكرك عام 1893 وبئر السبع عام 1901. وكان الهدف من إعادة التشكيل السوسيو-تنظيمي هذا، بسط النفوذ على الشبكات والممارسات "غير الرسمية" للسكان وربطها مكانيًا، وتحويل هذا العالم الحضري إلى مدينة إدارية/ أمنية حديثة ذات طابع رسمي، وإلى ولاية ومنطقة للاستفادة من الموارد الزراعية المختلفة.

كانت المفاوضات مع الوجهاء المحليين عنصرًا محوريًا في مسار هذه الإصلاحات، وغالبًا ما شاركت النخب المحلية طوعًا في صياغة هذا التَمَدْيُن الإمبريالي الهجين الآخذ في التشكل. وقد بدت بئر السبع موقعًا جاذبًا للإمبراطورية لما تمتعت به من حوكمة مجتمعية قائمة، وأهمية محورية، وبنى تحتية مائية وطرقية، و"مكانية" راسخة؛ ما جعلها موضعًا مناسبًا للتعبير عن "التدفقات الكامنة في صلب البنى المؤسسية"[91]. وفي حزيران/ يونيو 1899، أُنشئ القضاء الفرعي المسمّى باسم بئر السبع بوصفه قضاءً ذاتي الحكم Kaza، بعد فصله عن قضاء غزة وعن الإدارة المباشرة من القدس[92]. وصمّم المعماريان المقدسيان سعيد وراغب بك النشاشيبي منظومتها التخطيطية المصبعية[93]، لتغدو بئر السبع أول "مدينة مُخططة" في فلسطين[94]. وفي تتابعٍ سريع، ظهرت دوائر حكومية، ومدرسة، وبنك حكومي، وصحيفة محلية، وطرق مخططة مَصبعيًا، وأنفاق مياه، وخط تلغراف، ومسجد، وطاحونة، وحديقة عامة، وبساتين، وذلك بفضل مجموعة من الشراكات بين القطاعين العام والخاص[95].

كان من المرتكزات الأساسية للمشروع الإمبريالي الاعتقاد بأن التَمَدْيُن يتطلّب توطين من يُنظر إليهم على أنّهم "خارج" الحيز الحضري. لذلك، كان ينبغي تقييد القبائل البدوية التي تتحرّك بين

(91) Nora Lafi, "Mediterranean Connections: The Circulation of Municipal Knowledge and Practices at the Time of the Ottoman Reforms, c. 1830–1910," in: Pierre–Yves Saunier & Shane Ewen (eds.), *Another Global City: Historical Explorations into the Transnational Municipal Moment, 1850–2000* (New York: Palgrave Macmillan, 2008), pp. 135–150; Nora Lafi, "Ottoman Globalization and its Regimes of Historicity," in: Boissière & Morvan, pp. 28–52.

(92) TNA, FO 195/2106.

(93) يشير التخطيط المصبعي Grid plan إلى أسلوب في التخطيط الحضري تُنظَّم فيه شوارع المدينة وفق شبكة منتظمة من خطوط متقاطعة بزوايا قائمة؛ ما يُنتج كتلًا عمرانية متكررة، ويسهّل الحركة داخل المدينة. (المترجمان)

(94) Salim Tamari, *The Great War and the Remaking of Palestine* (Oakland: University of California Press, 2017).

(95) E. F. Bahadir, "An Attempt to Establish a City: Beersheba Town (1900–1917)," Ph.D. Dissertation, Fatih Sultan Mehmet Waqif University, 2018.

سيناء وشرقيّ الأردن و"دفعها" نحو "نمط حياة" حديث[96]. وشُجِعت عائلات عديدة من الجنوب الفلسطيني على شراء الأراضي وبناء المنازل في البلدة؛ إذ خصّصت الحكومة دونمًا واحدًا لمن يبني وفق اللوائح الحكومية، وأُعطيت أحيانًا أولوية اختيار المواقع لموظفي الحكومة أو المسؤولين في الجيش. وتلقّى من انتقلوا إلى البلدة إعانات وتخفيضات ضريبية. ووفق السجلات العثمانية، سُجِّلت معظم قطع الأراضي باسم بدو محليين وتجار ومسؤولين حكوميين[97]. وفي مقابل الحصول على أرض في بئر السبع أو في القرى الجديدة المحيطة بها، طلبت الحكومة من المستفيدين إرسال خُمس إنتاجهم الزراعي إليها[98]، وشجّعت الاستثمار في الزراعة بتقديم قروض من البنك الزراعي Zira'at Bank في القدس[99]. وخطّطت الحكومة لتبلور قرى وبلدات أخرى في القضاء ويسّرت ذلك، ومنها عسلوج وعوجا الحفير، إضافةً إلى محطات سكك الحديد والمساجد والأسواق والمنازل[100]. وقد أسهمت هذه الممارسات في تثبيت بئر السبع بوصفها جغرافيا ذات قيمة مكانية، أمّا الزخم واتساع الحيوية الحضرية التي تطوّرت فيها بوصفها مكانًا، فكانا من صنعها الخاص.

أُقيم المركز الإداري الجديد في بئر السبع على مساحة 2000 دونم اشتُريت من زعيم قبيلة العزازمة الشيخ حسن الملطة[101]. وبعد الانتهاء من بناء الكوناك-السرايا، "تدفّق الناس [إليه] لتسجيل أنفسهم والاستقرار حوله. وطلبوا أن يُبنى مسجد إلى جانبه هديةً من الإمبراطورية، وأن تحمل جميع المباني والشوارع أسماء ورموزًا عربية وعثمانية"[102]. وقد بُني المسجد الكبير على أرض وقف تبرّع بها بدو بئر السبع[103]، في حين جمعت القبائل تبرعاتٍ من أبنائها لفرش المسجد[104]. ومن اللافت أنّ السبعَاويين قادوا توسّع البلدة، إذ أبدى صحافي وصل عام 1916 دهشته من الطفرة العمرانية، مشيرًا إلى أنّ "معظم البيوت حديثة البناء، وثمّة شوارع منظّمة تحمل أسماء، وحمّامات عثمانية، وحدائق عامة، وكهرباء جارية، ومصانع، وطواحين، ومبانٍ حكومية وعسكرية، ومستشفيات، وصحيفة ومطبعة، وسينما، وبساتين برتقال، وقطار خفيف/ ترام [...] وقد اشترى بدو محليون وغزّيون من أماكن وخلفيات مختلفة الكثير من البيوت أو بنوها"[105] (الصورة 2).

(96) Mansour Nasasra, "The Frontiers of Empire: Colonial Policing in Southern Palestine, Sinai, Transjordan and Saudi Arabia," *The Journal of Imperial and Commonwealth History*, vol. 49, no. 5 (2021), pp. 899–939.

(97) BOA, DH.MUI:11/5.

(98) *Musavver Çöl*, 30/12/1916.

(99) BOA, DH.ID/44/18.

(100) *Musavver Çöl*, 30/12/1916.

(101) BOA, DH.MKT/2549/141.

(102) Selim Deringil, "'They Live in a State of Nomadism and Savagery': The Late Ottoman Empire and the post–colonial debate," *Comparative Studies in Society and History*, vol. 45, no. 2 (2003), pp. 311–342.

(103) **جريدة فلسطين**، 1913/4/20.

(104) BOA, DH.TMIK.S/32/51.

(105) *Musavver Çöl*, 15/2/1916.

الصورة (2)
بئر السبع في العهد العثماني

المصدر: Library of Congress, American Colony (Jerusalem), Photo Department, 1914–1917.

باتت المحاكم العشائرية التقليدية والمحاكم الشرعية شيئًا فشيئًا تؤدي دورًا رسميًا مُنظّمًا، ثم واصلت المساهمة في الحوكمة القانونية والتنظيمية طوال فترة الاستعمار البريطاني. وتُظهر أوراق المحكمة الشرعية في بئر السبع مدى الترابط الكثيف لهذا العالم الحضري من خلال القضايا التي نظرت فيها، والتي جاءت من مختلف أنحاء جنوب فلسطين. وكان قاضي بئر السبع يُعيَّن من القدس، ويتعامل مع قضايا الزواج والطلاق الواردة من أرجاء المنطقة، وكذلك من إسطنبول، نظرًا إلى وجود زيجات بين سكان محليين ومقيمين أتراك في المدينة. كما تُظهر السجلات وجود زيجات عديدة بين قبائل السبعاويين والمقدسيين[106]. واقتضت الحوكمة القضائية أيضًا تشكيل لجان خاصة مؤقتة بحسب الحاجة إلى الفصل في نزاعات الأراضي بين القبائل[107].

ظلّ التدخل العثماني، في معظم فترات القرن التاسع عشر، محدودًا في "تحسين" البنى التحتية للنقل والاتصالات في جنوب فلسطين، إذ تُرك توفيرها إلى حدٍ بعيد للقطاع الخاص. غير أنّ الدولة خصّصت، بعد عام 1901، بعض التمويل، مع تشجيع مبادرات خاصة إضافية لتحسين النقل بين المدن. وبحلول عام 1895، كانت قوارب شراعية تعمل في البحر الميت تربط الكرك بالخليل وتخدمُ السياح. وبحلول عام 1910، أُنشئت طريق تمتدُ من القدس عبر الخليل إلى غزة. وفي عام 1913، التزم متصرف القدس بربط المدينة ببقية فلسطين[108] (الصورة 3). وقد جرى التعبير عن تصوّر لشبكة طرق

(106) BOA, HR.UHM: 208/40/14.

(107) BOA, DH.TMIK.M/245/15.

(108) جريدة فلسطين، 1913/6/6.

بين المدن تنطلق من المدينة نحو غزة وبرير وخان يونس، إلى جانب مكاتب التلغراف والبريد ومحطة قطار ضخمة، ثم أسهم السبعاويون في تحويل هذا التصوّر إلى واقع فعلي والاستثمار فيه.

الصورة (3)

خريطة لبئر السبع تُظهر ارتباطاتها بعوجا الحفير وغزة والخليل

المصدر: TNA, WO 303/500.

روّج العثمانيون لمشروعين ضخمين في الإمبراطورية، هما التلغراف والسكك الحديدية، وقد أسهما في تعزيز الترابط الإقليمي القائم وتكثيفه. وصل التلغراف إلى يافا عام 1864، رابطًا الميناء عبر بيروت بإسطنبول والقدس. واتصلت غزة بالتلغراف عام 1872، والمجدل عام 1899، والخليل عام 1901، ثم رُبطت بئر السبع وعوجا الحفير بغزة وبشبكة مراكز الشرطة عام 1905، ثم أُلحقت خان يونس بالشبكة عام 1909[109]. وبحلول عام 1901، أُدرجت العقبة في خط التلغراف الجديد لشرقيّ الأردن عبر معان والطفيلة والكرك[110]. وقد أتاح التوسّع المصري/البريطاني المتزامن لمنظومة التلغراف المصرية، إلى جانب خط تلغراف دمشق – مكة العثماني الجديد، للسبعَاويين فرصًا لإقامة شراكات مع هذه البنى التحتية والعمل فيها مقابل أجور[111].

(109) Farid Al–Salim, *Palestine and the Decline of the Ottoman Empire: Modernization and the Path to Palestinian Statehood* (London: Bloomsbury, 2015).

(110) Rogan.

(111) Mostafa Minawi, "Beyond Rhetoric: Reassessing Bedouin–Ottoman Relations along the Route of the Hijaz Telegraph Line at the End of the Nineteenth Century," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 58, no. 1–2 (2015), pp. 75–104.

كانت أولى خطوط السكك الحديدية في جنوب فلسطين تلك التي أُنشئت خلال الحرب العالمية الأولى، مثل الخط العثماني إلى بئر السبع ثم إلى عوجا الحفير، والخط البريطاني الذي ربط دير البلح، ولاحقًا اللد، بالقنطرة. وبسبب اعتبارات جيوستراتيجية، أعاد العثمانيون توظيف بئر السبع ووسّعوها لتصبح مدينة أمنية محصّنة، وجعلوها معسكر انطلاق لنحو 20 ألف جندي. فشُيِّدت قاعدة جوية عسكرية، واستُقدم مهندسو مياه ألمان ومضخات، وأُنشئت مطبعة وصحيفة، وعُبِّدت الطريق إلى الخليل، وبُنيت جسور، ونُشرت عناصر استخباراتية[112]. وأصبحت بئر السبع حلقة وصل عسكرية – حضرية إقليمية للاستثمارات الحكومية والخاصة، إثر توسّع القواعد العسكرية وتطوير البنى التحتية، بما في ذلك منظومة خندقية دفاعية امتدت غربًا نحو غزة، في حين خدم بدو محليون في الجيشين البريطاني والعثماني. واستولت قوات إدموند ألنبي Edmund Allenby على المدينة يوم 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، مع بقاء آبارها سليمة وتوافر مخزونات كبيرة من الحبوب والمياه وعربات القطار والمدفعية.

2. الاحتلال البريطاني

مثّل الاستيلاء البريطاني على بئر السبع حدثًا تاريخيًا مُهيمنًا إلى حدٍّ يجعل من السهل إغفال استمرارية العلاقات المحلية والفاعلية الاجتماعية بعده. فقد جلب النظام البريطاني معه مخيالاته الاستعمارية وممارساته التَمَدْيُنية إلى هذا العالم الحضري الذي سيطر عليه، واحتفت الصحف البريطانية بانتصارها، واصفةً "إنقاذ" المدينة بأنه "خطوة أولى بالغة الأهمية في سلسلة الانتصارات التي ثبّتت العلم البريطاني فوق القدس"[113]. وأُعيد تأكيد مكانة بئر السبع بوصفها بوابة الجنوب إلى فلسطين، عندما دمج البريطانيون مركزيتها الشبكية وترتيبات الحكم القائمة على العلاقات المحلية في إدارتهم الخاصة؛ إذ عومل وجهاء محليون بوصفهم وسطاء، وجُنّد أفراد من القبائل في شرطة فلسطين (الهجّانة البدوية) الذين خدموا بوصفهم شرطةً خاصة لدوريات محطات الشرطة الجديدة والمناطق الحدودية[114].

تصوّر البريطانيون مستقبل التطور السوسيو-تقني لجنوب فلسطين من خلال منظور جغرافي مكاني استعماري أوسع. فقد تخيّلوا أنّ "إنشاء طريق تربطُ بين خليج العقبة والبحر الأبيض المتوسط سيكون بديلاً حقيقيًا من قناة السويس، لنقل البريد والبضائع والركّاب"[115]، ووظّفوا السبعاويين للمساعدة في بناء البنى التحتية والطرق المموّلة بريطانيًا[116]. لكن هذا المشروع الاستعماري لم يتحقّق، وقد أخفقت الإدارة البريطانية في تطوير البنى التحتية القائمة بين المدن وصيانتها. مع

(112) Tamari.

(113) *The Illustrated London News*, 15/12/1917.

(114) Nasasra, "The Frontiers of Empire."

(115) TNA, FO 371/20885.

(116) Cédric Parizot, "Gaza, Beershebe, Dhahriyya: Another Approach to the Negev Bedouins in the Israeli–Palestinian Space," *Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem*, vol. 9 (2001), pp. 98–110.

ذلك، قدّمت شركات خاصة خدمات النقل بين الحواضر بالسيارات أو الحافلات رغم سوء حالة الطرق. ولم يبدأ إنشاء الطريق بين غزة وبئر السبع إلا عام 1936، ولم تُعبّد كلّها. وظلّت طريق خان يونس – غزة – المجدل – يافا غير مكتملة؛ ما دفع النخب التجارية والإدارية المحلية إلى الشكوى المتكررة من التحيّز، ومن وعود الحكومة الاستعمارية غير المثمرة بشأن التنمية الاقتصادية الإقليمية[117]. وقد راود البريطانيين حلم ربط فلسطين وشرقيّ الأردن وسيناء ضمن منظومة سكك حديدية استعمارية مُتصلة[118]. وسرعان ما أُعيد ربط بئر السبع بالبنية التحتية للسكك الحديدية عبر فرع يتصل بالخط الساحلي قرب رفح؛ ما أتاح للحجاج السفر إلى مكة بالقطار[119]. ووجد السبعاويون فرص عمل في سكك حديد فلسطين، وشاركوا في تنظيم العمل النقابي للإسهام في بناء الحركة العمالية العربية الفلسطينية.

توسّع هذا العالم الحضري أيضًا عبر مرافق خدمية مترابطة، فقد كانت خدمات الرعاية الصحية التخصصية متاحة قبل عام 1914 من خلال مستشفى الإرسالية الإسكتلندية في الخليل، في حين ضمّت غزة مستشفى بلديًا وآخر إنكليزيًا (مستشفى المعمداني)[120]. وكان في بئر السبع مستشفى عسكري خلال العهد العثماني استقطب أطباءً عربًا وممرضين محليين[121]، ووظّفت البلدية أطباء في بئر السبع[122]. وخلال فترة الاستعمار، امتلكت بئر السبع مستشفى صغيرًا وعيادة خارجية وخدمات طبية للأطفال[123]. وكان البدو يقصدون غزة بانتظام لتلقي العلاج. يروي أحدهم: "أتذكر أنني زرت مستشفى المعمداني ومكثت فيه بضعة أيام للعلاج"[124]. وقد كان السبعاويون يلتمسون العلاج في الخليل أو القدس[125].

أصبحت الخدمات المصرفية المؤسسية متاحةً في جنوب فلسطين في أوائل القرن العشرين، ومتكاملةً مع خدمات الائتمان والقروض التي كان يوفّرها الصرّافون المحليون. ففي عام 1888، بدأ البنك الزراعي العثماني تقديم قروض منخفضة الفائدة إلى المزارعين بهدف زيادة الإنتاج، وبات له فروع في غزة والخليل بحلول عام 1910. وكان للبنك الألماني الفلسطيني فروع في غزة والخليل قبل عام 1914، في حين افتتح البنك الأنكلو–فلسطيني الصهيوني فرعًا في الخليل عام 1907 وآخر في

(117) Ilana Feldman, *Governing Gaza: Bureaucracy, Authority, and the Work of Rule, 1917–1967* (Durham, NC: Duke University Press, 2008).

(118) TNA, AIR 20/612.

(119) **جريدة فلسطين**، 1942/11/5.

(120) Karl Baedeker, *Palestine and Syria: Handbook for Travellers*, 5th ed. (London, 1912; New York, 1985).

(121) *Musavver Çöl*, 24/10/1916.

(122) BOA, DH.SFR.391/92.

(123) TNA, CO 733/344/4.

(124) آمنة السنجر، مقابلة شخصية، وادي شلالة، 2019.

(125) الحاج أبو علي النصاصرة، مقابلة شخصية، رهط، 2019.

غزة عام 1914، وأُغلق الفرعان بحلول عام 1930[126]. وخلال فترة الاستعمار، تزايدت بنوك بريطانية وأوروبية أخرى في المنطقة[127].

ثالثًا: التجميعات والتحوّلات

كان هذا العالم الحضري في جنوب فلسطين فضاءً نابضًا بعلاقات وشبكات كثيفة خلال القرن الذي أعقب الانسحاب المصري، وظلّ في حراكٍ دائم وتحوّل متواصل. وأسهم السبعاويون خلال علاقاتهم في إعادة تجسيد بئر السبع ماديًا، وفي صنع عالم جنوب فلسطين خلال المئة عام التالية.

1. توسيع نطاق بئر السبع

تُشير الأبحاث المعروضة سابقًا إلى أن أثر التعديلات التي يسّرها العثمانيون والبريطانيون، قد تضاعف نتيجة بناء السبعاويين لعلاقاتهم؛ إذ استثمروا العمل ورأس المال الاجتماعي والمالي، ما أسهم في تعزيز "سمة البلدة" (كثافة شبكات الروابط القوية) و"سمة المدينة" (اتساع الترابط والانتشار) في بئر السبع، التي أصبحت مدينة مزدهرة بعد عام 1901. وبحلول عام 1914، بلغ عدد السكان نحو ألف نسمة، بمئتي منزل وخمسين متجرًا، ثم ارتفع عددهم إلى نحو 3500 نسمة بحلول عام 1935[128]. وانتقلت عائلات من غزة مثل الشرفا وشعث والسقا وبسيسو، بما في ذلك عائلات فلسطينية مسيحية مثل الترزي وسابا، إلى بئر السبع واشترت منازل فيها[129]. وهاجرت إليها عائلات من وسط فلسطين، وانتقل إليها تجار وموظفون حكوميون. واشترى شيوخ بدو بارزون عقارات وبنوا منازل؛ ما أدى إلى انخراط القبائل داخل فضاءاتها الحضرية[130]. وكان يدير المدينة رئيس بلدية فلسطيني بدوي يحمل لقب "شيخ العُربان"، في حين خدم ممثلون من القبائل والقرى المختلفة أعضاءً في مجلس الحكم[131]. وجاء موظفون حكوميون من غزة والخليل ونابلس وبيت لحم والقدس، وكذلك من بين البدو، في إطار التزام عثماني بتنويع جهاز الخدمة المدنية[132].

أحدثت هذه الطفرة التنموية في بئر السبع والقرى المحيطة بها مثل برير والفالوجة حراكًا اقتصاديًا لافتًا؛ إذ قال أحد المشاركين: "استثمر تجار من غزة والخليل في بئر السبع والقرى المجاورة، عن طريق شراء الأراضي من البدو وزراعتها بمعدات حديثة؛ ما أدى إلى ازدهار اقتصادي في هذا

(126) Sreemati Mitter, "A History of Money in Palestine: From the 1900s to the Present," Ph.D. Dissertation, Harvard University, 2014, accessed on 27/3/2022, at: https://acr.ps/hBxVKre

(127) Ahmad Amara, "Beyond Stereotypes of Bedouins as 'Nomads' and 'Savages': Rethinking the Bedouin in Ottoman Southern Palestine, 1875–1900," *Journal of Holy Land and Palestine Studies*, vol. 15, no. 1 (2016), pp. 59–77.

(128) Aref Abu–Rabia, *A Bedouin Century: Education and Development among the Negev Tribes in the Twentieth Century* (New York: Berghahn, 2001).

(129) نبيل الشرفا، مقابلة شخصية، بئر السبع، 2019.

(130) الحاج موسى أبو عايش، مقابلة شخصية، اللقية، 2017.

(131) BOA, DH.TMIK.S/80/28.

(132) Lafi, "Ottoman Globalization."

القضاء الجنوبي". وكان الاستثمار المحلي عنصرًا حاسمًا في النمو الاقتصادي؛ إذ "أنشأ تجار من غزة وعائلات بدوية ثرية مطاحن دقيق (بابور قمح) في بئر السبع، وفي قرى أخرى مثل تل الملح وعرعرة"[133] (الصورة 4). وعمّقت فاعلية السبعاويين الروابط الاقتصادية الإقليمية من خلال قوتهم الشرائية والإنتاجية "في أسواق الخليل وغزة وبئر السبع ومعان"[134].

الصورة (4)

مطحنة دقيق قرية تلّ الملح (مدينة الملح) خلال فترة الاستعمار البريطاني في فلسطين

المصدر: من تصوير المؤلف الأول، 2022.

أسهمت هذه الممارسات في تعزيز استمرارية الفسيفساء الكوزموبوليتانية الناشئة التي ضمّت غزّيين وبدوًا وخليليين ومقدسيين ونابلسيين، فضلاً عن وافدين من مئات التجمعات الحضرية والزراعية. وقد جذب هذا الفضاء الكثيف والمتنوع، بما اتسم به من طابع ميتروبوليتاني وتعددي، "تجارًا من غزة والخليل، وعائلات بدوية، وموظفين مقدسيين، وقرويين، وحتى أطباء وممرضين؛ ما يدلّ على مركزيته الاقتصادية"[135].

(133) الشيخ محمد بن حسن أبو ربيعة، مقابلة شخصية، تل الملح، 2018.

(134) الحاج أبو جودة، مقابلة شخصية، تل عراد، 2021.

(135) علي قليبو (أبو حيدر)، مقابلة شخصية، القدس، 2022.

توثّق الترابط الإقليمي (وتنامى معه الشعور بهوية "فلسطينية") عبر تشابك العلاقات الاجتماعية؛ إذ ربطت بئر السبع بمجتمعات القضاء المختلفة علاقاتٌ من تحمّل المخاطر المالية المشتركة والزيجات المختلطة[136]. ويتذكّر بعض المشاركين "مئات الزيجات والعلاقات الأسرية بين مجتمعات غزة وبئر السبع والخليل. عمّي مقدسي لكنه تزوّج بدوية من إحدى قبائل بئر السبع". وقد تزوّج أبناء العشائر البدوية من بئر السبع نساءً من غزة والخليل وقرى الساحل الفلسطيني[137]، واشترى أفراد من العشائر المحلية منازل في غزة نتيجة المصاهرة مع غزيين أو لوجود أقارب لهم هناك[138]. وتؤكّد سجلات المحكمة الشرعية في بئر السبع هذا التزايد في المؤانسة[139]. وقد عزّز ذلك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين مكوّنات المجتمع المختلفة، وفتح مسارات للتعليم، ورسّخ "تفاعلات يومية بين أجزاء مختلفة من المجتمع الفلسطيني"[140]. وتتذكّر نساء سبعاويات أنّ النساء الغزّيات المتزوّجات من بدو أسهمن جماعيًا في الإنتاج؛ إذ نقلن مهارات الخياطة الخاصة بصناعة الصوف إلى مدينة بئر السبع[141]. وعكس الطابع الكوزموبوليتاني الناشئ في بئر السبع عمليات مماثلة من الحركة والتركيب والتيسير شهدها كامل المشهد الجنوبي؛ إذ كانت غزة والخليل وبئر السبع نتاج "قيام" أشخاص من أماكن قريبة وبعيدة بتجميع هذه الفضاءات وإعادة تشكيل هذا العالم الحضري المشترك.

2. ديناميات التجميع

تُظهر الشذرات التي لملمتها هذه الدراسة آليتين محدّدتين للتجميع. تتمثّل الأولى في التركيب الديناميكي المتزايد، حيث تعزّزت العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية، وتراكبت مع دوائر قائمة ومستمرة؛ ما أدى إلى تكثّفها وتقوية الروابط وتوسيع الفرص الاقتصادية والإنتاجية. وقد اجتمع رأس المال الاجتماعي والعمالي مع زيادة التمويل والاستثمار، إلى جانب تداول المعرفة، لتوسيع الإنتاجية المرتبطة بالمكان، وصوغ عقود جديدة، وبناء شبكات ثقة، وتكثيف الخدمات. وأسهمت مجموعات جديدة من المشروعات الصغيرة والمتوسطة، وفرص التعليم، والخدمات التخصصية، لا سيّما في بئر السبع وعبر فضائها، في المراكمة على الإصلاحات العثمانية، مع إعادة تشكيل البنى التحتية السوسيو–تقنية عبر شبكات السبعاويين وروابطهم. وقد أسهم ذلك في تنامي "سمة البلدة" في بئر السبع وتكثيفها، لا سيّما بعد عام 1901، ثم مرةً أخرى بعد عام 1917.

أمّا الآلية الثانية، والمرتبطة بالأولى والحاسمة لنجاحها، فتتمثّل في تيسير الترابط عبر هذه المنظومة المدينية الإقليمية. فقد عدّل السبعاويون النسيج الحضري من خلال تعميم الابتكارية، وردم الفجوات بين المجتمعات، وتيسير الحركة بين المواقع، والتوليف بين العلاقات الاجتماعية الممتدة والشراكات

(136) جريدة فلسطين، 1942/9/19.

(137) قليبو.

(138) الحاج حسن الصانع، مقابلة شخصية، اللقية، 2016.

(139) BOA, MR. UHM: 208/30/14.

(140) الحاج إسماعيل الطوري، مقابلة شخصية، رهط، 2019.

(141) الحاجة سارة أبو عصا، مقابلة شخصية، تل السبع، 2018.

الاقتصادية. وبوصفهم وسطاء ومُيسّرين، فعّل السبعاويون طيفًا من الروابط القوية والضعيفة لتوريط الآخرين في مشروعات مختلفة، واغتنام الفرص لإقامة مبادرات جديدة على مستوى الإقليم. وأسهم تضافر هاتين الآليتين في توسيع نطاق المكانية الاستراتيجية لبئر السبع، وفي إعادة تشكيل عالم جنوب فلسطين.

3. لحظات التحوّل

دائمًا ما تكون العوالم الحضرية في صيرورة تشكل، وتتحوّل بطرائق غير متوقعة. وتُظهر هذه الدراسة ثلاث مراحل متمايزة نسبيًا من الحيوية الحضرية وتوسّع بئر السبع: تتمثل المرحلة الأولى في الفترة 1840–1899، والثانية في الفترة 1901–1914، والثالثة في الفترة 1918–1936، إضافةً إلى مرحلة كبح واحدة (1914–1917). وقد كان هذا العالم الحضري متعدّد الطبقات ومتعدّد النطاقات قبل عام 1901؛ إذ أظهرت بئر السبع سِمات مكانية عمرانية واضحة ودرجة ما من سمة البلدة، وكذلك من سمة المدينة.

بعد عام 1901، نشأ نمط تَمَدْيُن إمبريالي – سبعاوي، أكثر اتساعًا وإنتاجية، تشكّل عبر تداخل تصوّرات إسطنبول الحداثية وسلوكها، مع فاعلية السبعاويين وتوسّع الدوائر الاجتماعية – الاقتصادية[142]. وأسهم النمو السكاني الحضري في جنوب فلسطين، وقيام مؤسسات حكم جديدة، وتطوّر البنى التحتية التكنولوجية، وتعبئة موارد عامة وخاصة جديدة، وتعزّز التنوع واللاتجانس، في مضاعفة مكانية بئر السبع داخل عالم حضري متسارع. ثم أعقب ذلك طور من التكثيف المُقيّد (1914–1917)، هيمنت عليه آليات أمنية للضبط الاجتماعي وسلطة دفاعية؛ إذ أُعيد توظيف بئر السبع سريعًا بوصفها موقعًا مركزيًا وحامية عسكرية، فجرى الحدّ من سمة المدينة الخاصة بها، مع تكثّف سوسيو–مكانيتها/ سمة البلدة الخاصة بها، خدمةً للضرورات العسكرية.

وبعد التحوّل الذي طرأ عام 1917، ألقى **التَمَدْيُن الاستعماري البريطاني** بظلالٍ مُختلفة إلى حدٍّ ما على الحياة اليومية المتجددة. ولم يكن ممكنًا إنكار دور بئر السبع بوصفها موقعًا مركزيًا، لذلك أعادت الإدارة الاستعمارية تأكيد دور المدينة الإداري والأمني. واستمر تطوّر سمة المدينة وسمة البلدة الخاصين بالمدينة، إثر مبادرات محلية للإنتاج والتيسير ومراكمة البنى التحتية، أكثر مما كان نتيجة لفاعلية بريطانية. فقد قادت التزامات بريطانيا بإعادة تشكيل الاقتصاد السياسي الفلسطيني الأوسع وأمننة الانتداب، إلى إيلاء قدرٍ محدود من الاهتمام لجنوب فلسطين وإنفاق موارد قليلة فيه؛ ما أتاح مجالاً لمبادرات السبعاويين والمقاومة الالتفافية. وعلى نحوٍ مُغاير، بدأت التجميعات الحضرية في بئر السبع وجنوب فلسطين، والتي ضُيّقت دوائرها التقليدية تجاه شرقيّ الأردن وسيناء، بإعادة توجيه علاقاتها المادية والفكرية بصورةٍ أوثق نحو "عالم حضري فلسطيني" ناشئ؛ ما أطلق نقلة في الهوية السياسية، والمِخيالات المكانية التي كان لها أثر مُهم في لحظات التحوّل الحضري اللاحقة للمدينة حتى عام النكبة وسقوط المدينة تحت الاستعمار الصهيوني (1935، 1948)[143].

(142) Lafi, "Ottoman Globalization."

(143) Parizot.

خاتمة

تشير هذه المراجعة لصيرورة بئر السبع الدائمة خلال الفترة 1840–1936، إلى أربع مسائل ينبغي إعادة النظر فيها بخصوص التاريخ الحضري المترابط في الجنوب الفلسطيني. تتمثّل الأولى في الإقرار بأن السبعاويين، الذين همّشهم كثيرون بعدّهم "خارج" التاريخ الحضري لجنوب فلسطين، كانوا في الواقع صانعي عوالم جبّارين، إذ ربطوا ويسّروا وجسروا وركّبوا بطرائق أسهمت على نحوٍ حاسم في الإنتاج المشترك لبئر السبع داخل هذا العالم الحضري ومن خلاله. وتؤكّد المقابلات والبيانات الأرشيفية مرارًا وتكرارًا هذا التجميع العلائقي الأساسي الذي "خلق شروط" التَمَدْيُن بطرائق مُدهشة[144]. ولا يمكن فهم النمو الاستثنائي لبئر السبع بوصفها عُقدة ذات قيمة اجتماعية – اقتصادية، وحلقة أساسية في نشوء الكوزموبوليتانية في جنوب فلسطين، إلا بـ "إعادة إدراج" السبعاويين "داخل" سردية التحوّل الحضري. وبالنسبة إلى دارسي التاريخ الحضري المترابط، يُسلط الإصغاء إلى قصص صنع العالم من "الساكنين والمستقرين" ضمن جغرافيات مكانية غير متكافئة، الضوء على ممارسات (إعادة) النسج المستمر من تشبيك وتجسير ووساطة، التي تُجمّع مثل هذه العوالم[145].

ثانيًا، تؤكد الدراسة مركزية المِخيالات المكانية لفضاء حضري مترابط في نشوء العوالم الحضرية واستقرارها وتحولها في الجنوب الفلسطيني[146]. وقد أشار المشاركون في هذه الدراسة مرارًا إلى ما وصفه إدوارد سوجا بـ"شبكات تفسيرية نُفكّر من خلالها في الأمكنة والفضاءات والمجتمعات التي نعيش فيها ونختبرها ونقيّمها ونقرّر التصرّف ضمنها"[147]. وقد وفّر هذا الوعي المكاني الخاص بالسياق إطارًا للتدبير، والذي تعاونَ من خلاله تُجار غزة، ومزارعو جنوب جبال الخليل، وتجار المجدل، والبدو، والمهاجرون الحضريون، في إنتاج السلع أو نقلها، وتقديم الخدمات، والاستثمار في مساكن جديدة، أو السعي إلى فرص تعليمية. وضمن هذا المخيال المكاني، كانت بئر السبع متشابكة مع المجدل وإسدود وبرير والفالوجة وبيت جبرين ورفح والخليل والعقبة والكرك ومعان، ومع مجتمعات متشعبة بين هذه المواقع، فلم تكن هذه "الأمكنة" "بعيدة" أو في الخارج، بل "في الداخل": يُمكن الوصول إليها، وقريبة، وحاضرة بقوة.

تنبثق المسألة الثالثة من السياسة التنازعية Contentious Politics للمكان التي ولّدها التفاعل اليومي للسبعاويين مع ممارسات الضبط والسيطرة التي انتهجها التَمَدْيُن الإمبريالي والاستعماري. فقد تواصل في المشروع الاستعماري البريطاني المسعى العثماني إلى إرساء سلطة رسمية على أمكنة جنوب فلسطين وشبكات ارتباطها. وفي كلتا الحالتين، استجاب أهل المنطقة بالعمل حول مشاريع السيطرة السيادية هذه ومن خلالها، مُغيرين إياها على نحوٍ ملحوظ، عبر المشاركة فيها ومنازعتها

(144) AbdouMaliq Simone, *Improvised Lives: Rhythms of Endurance in an Urban South* (Cambridge: Polity Press, 2019).

(145) Durose et al.

(146) Alev Çinar & Thomas Bender (eds.), *Urban Imaginaries: Locating the Modern City* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2007).

(147) Edward W. Soja, *Postmetropolis: Critical Studies of Cities and Regions* (Oxford: Wiley–Blackwell, 2000), p. 324.

في "الحق في المدينة" وسُبل الوصول إلى السلطة السياسية. ويشير ظهور بئر سبع كوزموبوليتانية، وقد تركزت أكثر على دوائرها الشمالية في أعقاب فصل سيناء وشرقيّ الأردن عن المِخيال المكاني لـ "النقب"، إلى ضرورة إعادة النظر في مواقيت "الجنوبيين" وإسهاماتهم ودورهم في "الصحوة الوطنية" الفلسطينية وبناء عالم حضري فلسطيني مُتكامل.

تشير نتائجنا أيضًا إلى أنّ دراسة المراحل اللاحقة لعام 1936 من التدخلات السيادية في الجغرافيا المكانية للنقب وبئر السبع، قد تولّد رؤى نقدية مهمّة. فقد تكون الدوائر التي نسجت السبعاويين في مجتمع متكامل على الأرض، أشدّ صمودًا وقدرةً على خلخلة الترتيبات المفروضة مما قد توحي به للوهلة الأولى، في مواجهة الكوارث اللاحقة، وإعادة ترسيم الحدود السيادية، والإبادة الحضرية Urbicide. ومن الواضح أن قوّة الترابط عام 1936 تعني أنه، عقب لحظات التحوّل اللاحقة، "أعادت حركة الأشخاص والسلع والتمثيلات [...] [و] الروابط العابرة للحدود [...] تشكيل شبكات كانت قائمة قبل نكبة العام 1948"، ومن المرجّح أن تستمر بوصفها ممارسة مناوئة للسيادة في المستقبل[148].

خلاصة القول إن الحكاية المتجذرة لبئر السبع تشير إلى أن التاريخ الحضري للمدن "العادية"، ولا سيما تلك التي تتوارى وتظهر على هامش السرد التاريخي، يمكن أن تُروى بكامل تعقيدها، حين يُنظر إليها من منظور علائقي عبر إطار زماني ومكاني أطول. وتتعزز محاولة التقاط لحظات التحوّل والحضور العابر والغياب الطيفي، من خلال الانتباه إلى المزيج المتحوّل باستمرار من سمة البلدة وسمة المدينة، الذي يصوغه أولئك الساكنون والمستقرون، بينما يعيدون تشكيل الفضاء والشبكات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويُسهم إبراز ممارسات التشبيك والتركيب، والبحث عن الإمكانات الناشئة الكامنة خارج نطاق الدولة وإدراكها، في تعميق فهم التحوّلات الحضرية[149]. ويُتيح النظر إلى ما وراء مدن الشمال العالمي الحديثة، وأشكالها ووظائفها وتواريخها الخاصة، إعادة الاعتراف بأن أنماطًا حضرية متنوعة بوصفها أساليب حياة، ما فتئت تنبثقُ في تقاطعاتٍ زمانية ومكانية مُحددة.

تُذكّرنا حكاية بئر السبع بأهمية الالتفات إلى المِخيال المكاني الحضري والممارسات اليومية العادية لأولئك الذين يبلغون الحضرية ويدعمونها ويصنعونها، حتى إن لم يقيموا إقامة دائمة في أحياء مكتظة بالسكان أو في مبانٍ شاهقة. فقد كانت حيواتٌ كثيرة، على امتداد الزمان، حضريةً بطرائق لا تنسجم مع النظرية الحضرية المعاصرة، وهو ما يدعونا إلى مساءلة كفاية مفاهيمنا، وتجاوز انشغالنا بثنائية الداخل والخارج، وإلى البحث في التاريخ الحضري عن سردياتٍ أرحب للصيرورة الدائمة داخل عوالم حضرية مُجمّعة وعبر فضائها.

(148) Parizot, p. 110.

(149) Edgar Pieterse, *City Futures: Confronting the Crisis of Urban Development* (London/ New York: Zed Books, 2008).

References المراجع

Abu–Rabia, Aref. *A Bedouin Century: Education and Development among the Negev Tribes in the Twentieth Century*. New York: Berghahn, 2001.

Abu–Rabia–Queder, Sarab. "The Biopolitics of Declassing Professional Women in a Settler Colonial Context." *Current Sociology*. vol. 67, no. 1 (2019).

Allen, John, Doreen Massey & Steve Pile (eds.). *City Worlds*. London: Routledge, 1999.

Al–Salim, Farid. *Palestine and the Decline of the Ottoman Empire: Modernization and the Path to Palestinian Statehood*. London: Bloomsbury, 2015.

Amara, Ahmad. "Beyond Stereotypes of Bedouins as 'Nomads' and 'Savages': Rethinking the Bedouin in Ottoman Southern Palestine, 1875–1900." *Journal of Holy Land and Palestine Studies*. vol. 15, no. 1 (2016).

Baedeker, Karl. *Palestine and Syria: Handbook for Travellers*. 5th ed. London, 1912; New York, 1985.

Bahadir, E. F. "An Attempt to Establish a City: Beersheba Town (1900–1917)." Ph.D. Dissertation. Fatih Sultan Mehmet Waqif University. 2018.

Bell, Gawain. *Shadows on the Sand: The Memoirs of Sir Gawain Bell*. London: C. Hurst, 1983.

Ben–David, Joseph & Gideon M. Kressel. "The Bedouin Market: The Axis around which Beer–Sheva Developed in the British Mandatory Period." *Nomadic Peoples*. vol. 39 (1996).

Boissière, Thierry & Yoann Morvan. *Un Moyen–Orient ordinaire: Entre consommations et mobilités*. Marseille: Diacritiques Éditions, 2022.

Brenner, Neil, David J. Madden & David Wachsmuth. "Assemblage Urbanism and the Challenges of Critical Urban Theory." *City*. vol. 15, no. 2 (2011).

Burckhardt, John Lewis. *Travels in Syria and the Holy Land*. London: John Murray, 1822.

Büssow, Johann. *Hamidian Palestine: Politics and Society in the District of Jerusalem, 1872–1908*. Leiden: Brill, 2011.

Çağlar, Burhan, Ömer Faruk Can & Hacer Kılıçaslan (eds.). *Living in the Ottoman Lands: Identities, Administration and Warfare*. Istanbul: Kronik, 2021.

Çinar, Alev & Thomas Bender (eds.). *Urban Imaginaries: Locating the Modern City*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2007.

Conder, Claude Reignier & Horatio Herbert Kitchener. *The Survey of Western Palestine*, vol. III: *Judaea*. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1883.

Deringil, Selim. "'They Live in a State of Nomadism and Savagery': The Late Ottoman Empire and the post–colonial Debate." *Comparative Studies in Society and History*. vol. 45, no. 2 (2003).

Durose, Catherine et al., "Working the Urban Assemblage: A Transnational Study of Transforming Practices." *Urban Studies*. vol. 59, no. 10 (2021).

Farías, Ignacio & Thomas Bender (eds.). *Urban Assemblages: How Actor–Network Theory Changes Urban Studies*. Abingdon: Routledge, 2010.

Feldman, Ilana. *Governing Gaza: Bureaucracy, Authority, and the Work of Rule, 1917–1967*. Durham, NC: Duke University Press, 2008.

Hart, Emma & Mariana Dantas. "Digging down into the Global Urban Past." *Urban History*. vol. 48, no. 3 (2021).

Hasan, Manar. "Palestine's Absent Cities: Gender, Memoricide and the Silencing of Urban Palestinian Memory." *Journal of Holy Land and Palestine Studies*. vol. 18, no. 1 (2019).

Ingold, Tim. *The Perception of the Environment*. Abingdon: Routledge, 2000.

Issawi, Charles. *The Fertile Crescent, 1800–1914: A Documentary Economic History*. New York: Oxford University Press, 1988.

Kedar, Alexandre, Ahmad Amara & Oren Yiftachel. *Emptied Land: A Legal Geography of Bedouin Rights in the Negev*. Stanford: Stanford University Press, 2020.

Khalidi, Rashid & Salim Tamari (eds.). *The Other Jerusalem: Rethinking the History of the Sacred City*. New York: Institute for Palestine Studies, 2020.

Krämer, Gudrun. *A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel.* Princeton: Princeton University Press, 2011.

Lindón, Alicia. "The Lived City: Everyday Experiences, Urban Scenarios, and Topological Networks." *Geographica Helvetica*. vol. 74, no. 1 (2019).

McFarlane, Colin. *Learning the City*. Malden: Wiley–Blackwell, 2011.

Meraiot, Ariel, Avinoam Meir & Steve Rose. "Scale, Landscape and Indigenous Bedouin Land Use: Spatial Order and Agricultural Sedentarisation in the Negev Highland." *Nomadic Peoples*. vol. 25, no. 1 (2021).

Meyer, Martin Abraham. *History of the City of Gaza: From the Earliest Times to the Present Day*. Columbia University Oriental Studies. vol. 5. New York: Columbia University Press, 1907.

Minawi, Mostafa. "Beyond rhetoric: Reassessing Bedouin–Ottoman Relations along the Route of the Hijaz Telegraph Line at the End of the Nineteenth Century." *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 58, no. 1–2 (2015).

Mitter, Sreemati. "A History of Money in Palestine: From the 1900s to the Present." Ph.D. Dissertation. Harvard University, 2014.

Nasasra, Mansour. "Ruling the Desert: Ottoman and British Policies towards the Bedouin of the Naqab and Transjordan Region, 1900–1948." *British Journal of Middle Eastern Studies*. vol. 42, no. 3 (2015).

_____. "The Frontiers of Empire: Colonial Policing in Southern Palestine, Sinai, Transjordan and Saudi Arabia." *The Journal of Imperial and Commonwealth History*. vol. 49, no. 5 (2021).

Owen, Roger. *The Middle East in the World Economy, 1800–1914*. New York: Methuen, 1981.

Parizot, Cédric. "Gaza, Beershebe, Dhahriyya: Another Approach to the Negev Bedouins in the Israeli–Palestinian Space." *Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem*. vol. 9 (2001).

Pieterse, Edgar. *City Futures: Confronting the Crisis of Urban Development*. London/ New York: Zed Books, 2008.

Robinson, Edward. *Later Biblical Researches in Palestine, and in the Adjacent Regions: A Journal of Travels in the Year 1838*. Boston: Crocker and Brewster, 1874.

Robinson, Jennifer. *Ordinary Cities: Between Modernity and Development*. Abingdon: Routledge, 2006.

Rodger, Richard & Susanne Rau. "Thinking Spatially: New Horizons for Urban History." *Urban History*. vol. 47, no. 3 (2020).

Rogan, Eugene L. *Frontiers of the State in the Late Ottoman Empire: Transjordan, 1850–1921*. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Saidel, Benjamin et al. "An Archaeological Survey of the Arab Village of Bureir: Perspectives on the Late Ottoman and British Mandate Period in Southern Israel." *American Schools of Oriental Research*. vol. 383, no. 1 (2020).

Saunier, Pierre–Yves & Shane Ewen (eds.). *Another Global City: Historical Explorations into the Transnational Municipal Moment, 1850–2000*. New York: Palgrave Macmillan, 2008.

Sawer, E. R. *Annual Report 1926, Department of Agriculture, Forestry, Fisheries, Palestine*. Greek Conv. Press. London: British Library.

Sayın, Özgür, Michael Hoyler & John Harrison. "Doing Comparative Urbanism Differently: Conjunctural Cities and the Stress–testing of Urban Theory." *Urban Studies*. vol. 59, no. 2 (2022).

Schick, Robert. "Who Came on Pilgrimage to Jerusalem in the Mamluk and Ottoman Periods: An Interreligious Comparison." *Für Seelenheil und Lebensglück* (2018).

Shechter, Relli. *Smoking, Culture and Economy in the Middle East: The Egyptian Tobacco Market 1850–2000.* London: Bloomsbury, 2006.

Simone, AbdouMaliq & Edgar Pieterse. *New Urban Worlds: Inhabiting Dissonant Times*. Cambridge: Polity Press, 2017.

Simone, AbdouMaliq. *City Life from Jakarta to Dakar: Movements at the Crossroads*. Abingdon: Routledge, 2010.

_____. *Improvised Lives: Rhythms of Endurance in an Urban South*. Cambridge: Polity Press, 2019.

Soja, Edward W. *Postmetropolis: Critical Studies of Cities and Regions*. Oxford: Wiley–Blackwell, 2000.

Stanley, Arthur Penrhyn. *Sinai and Palestine*. London: John Murray, 1875.

Stanley, Bruce. "Middle East City Networks and the 'New Urbanism'." *Cities*. vol. 22, no. 3 (2005).

Tamari, Salim. *The Great War and the Remaking of Palestine*. Oakland: University of California Press, 2017.

Taylor, Peter J. *Extraordinary Cities*. Cheltenham: Edward Elgar Publishing Ltd, 2013.

_____. *Advanced Introduction to Cities*. Cheltenham: Elgar, 2021.

Van der Steen, Eveline. *Near Eastern Tribal Societies during the Nineteenth Century: Economy, Society and Politics between Tent and Town*. London/ New York: Routledge, 2013.

Wirth, Louis. "Urbanism as a Way of LIfe." *American Journal of Sociology*. vol. 44, no. 1 (1938).

Woods, Michael et al. "Assemblage, Place and Globalization." *Transactions of the Institute of British Geographers*. vol. 46, no. 2 (2021).

Yacobi, Haim & Mansour Nasasra (eds.). *Routledge Handbook on Middle East Cities*. Abingdon: Routledge, 2019.